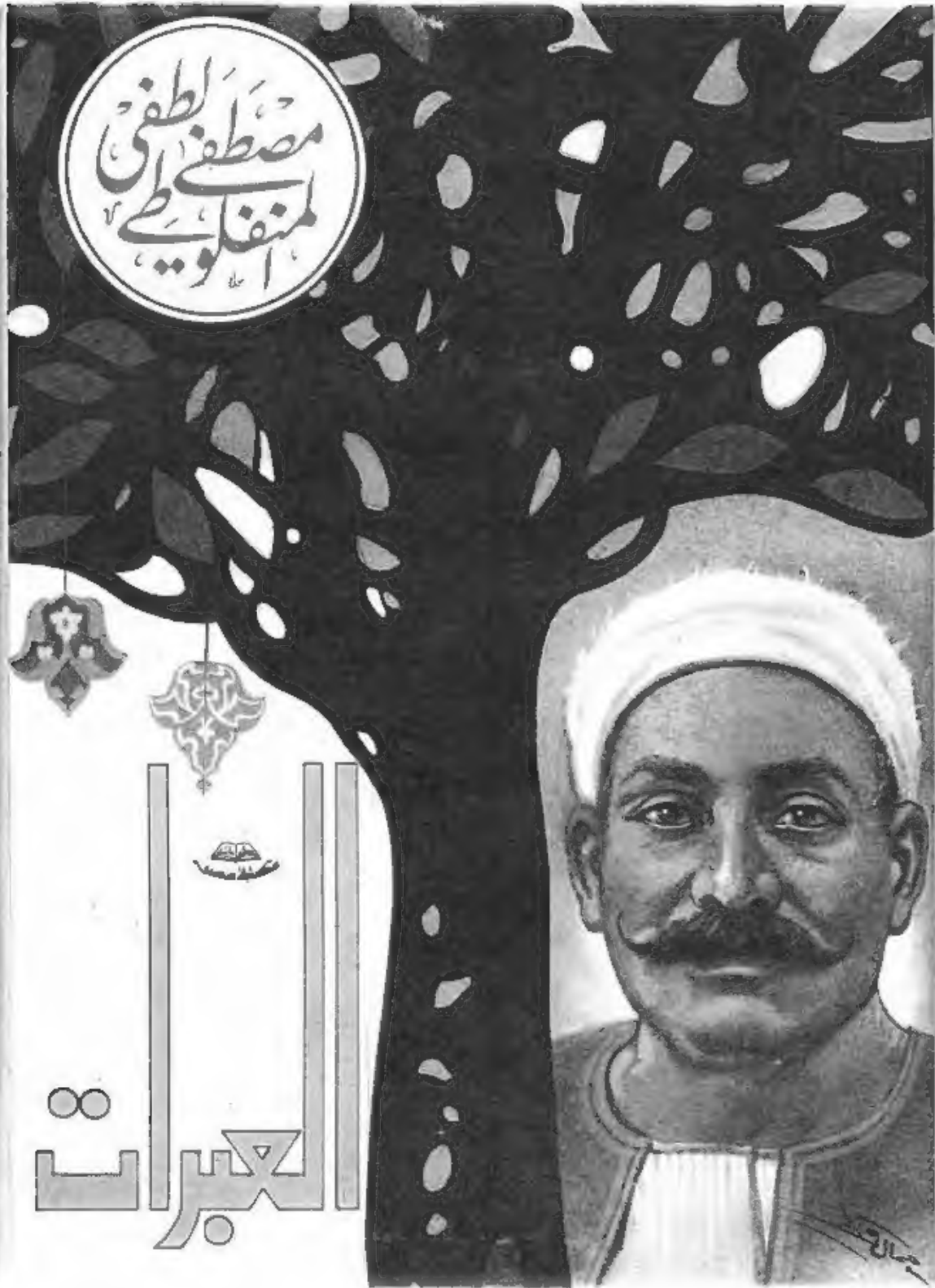


الناشر
مكتبة مصر
بيروت - لبنان
شأن كامل صدق النجاة
٥٩٨٩٢٠١

الثلث ٥٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
بيروت - لبنان



مصطفیٰ لطفی

إهداء

الآشقياء في الدنيا كثير ، وليس في استطاعة
بائسٍ مثل أن يحسّ شيئاً من يؤسّرهم
وشقائهم ، فلا أقل من أن أسكب بين أيديهم
هذه القبرات ، علّهم يجدون في بكائي عليهم
تغزيةً وسلوى .

مصطفى لطفى المنفلوطي

فوقها ، فمحا من كلماتها ما حيا ، ومشى ببعض يدها إلى بعض ، ثم لم يلبث أن عاد إلى نفسه ، فتناول قلمه ، ورجع إلى شأنه الذي كان فيه .

فأحزنتني أن أرى في ظلمة ذلك الليل ومكونه هذا الفتى البائس المسكين منفردا بنفسه في غرفة عارية باردة لا يتقى فيها عادية البرد بدثار ولا نار ، يشكو ههنا من هموم الحياة أو رُزْماً^(١) من أرزائها ، قبل أن يبلغ سن المصوم والأحزان ، من حيث لا يجد بجانبه مواسياً ولا معيناً .

وقلت : لا بد أن يكون وراء هذا المنظر الضارع^(٢) الشاحب نفس قريحة معذبة تلذّب بين أضلاعه ذوباً ، فيتهاوت لها جسمه تهاوت الخبياء المقوض .

فلم أزل واقفا مكاني لا أبرحه ، حتى رأيته قد طوى كتابه ، وفارق مجلسه ، وأوى إلى فراشه ، فأنصرفت إلى مخدعي ، وقد مضى الليل إلا أقله ، ولم يبق من سواده في صفحة هذا الوجود إلا بقايا أسطر يوشك أن يمتد إليها لسان الصباح فيأتي عليها .

ثم لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إما باكياً ، أو مطرقاً أو ضارباً برأسه على صدره ، أو منطويًا على نفسه في فراشه يئن الوالهيّة الثكلى ، أو هاتماً في غرفته يترع أرضها ، ويمسح جدرانها حتى إذا نال منه الجهد سقط على كرسى باكياً متحجباً ، فأنوجع له ، وأبكي لبكائه ، وأتأني لو استطعت أن أداخله^(٣) مُدَاخِلَةً الصديق لصديقه وأستبقي^(٤) ذات نفسه وأشركه في همه ، لولا أنني كرهت أن أفجأه بما لا يحب ، وأن أهجم منه على

اليتم

موضوعه :

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فني في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره . وأحسب أنه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر ، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي ، وكانت على مكتب من بعض نوافذ غرفته . فأرى أمامي فتى شاحباً ، نحيلاً ، منقيضاً ، جالساً إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ، ينظر في كتاب ، أو يكتب في دفتر ، أو يستظهر قطعة ، أو يعيد درساً ، فلم أكن أحفل بشيء من أمره .

حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة قرّة من ليالي الشتاء ، فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشئون ، فأنصرفت عليه ، فإذا هو جالس جلسته تلك : أمام مصباحه ، وقد أكبّ بوجهه على دفتر منشور بين يديه ، على مكتبه ، فظننت أنه لما ألم به من تعب الدرس وآلام السهر ، قد عبت بجهنمه سيرة من النوم ، فأعجلته من الذهاب إلى فراشه ، وسقطت به مكانه ، فما زمت مكاني^(١) حتى رفع رأسه ، فإذا عيناه مُخْضَلَّتَانِ^(٢) من البكاء ، وإذا صفحة دفتره التي كان مُكَبِّاً عليها قد جرى دمع

(١) الضارع : الضعيف النحيل . (٢) الرُزْمُ : الضربة .

(٣) دَاخَلَهُ فِي أَمْرِهِ : شَارِكُهُ فِيهَا . (٤) اسْتَبَقِيَهُ : طَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْبَعَ لِي .

(١) رَأَى مَكَانَهُ : رَأَى مِنْهُ وَفَرَقَهُ . (٢) مُخْضَلَّتَانِ : مَبْتَلَتَانِ .

مر ربما كان يؤثر الإبقاء عليه في صدره ، وأن يكافئه الناس جميعاً .

حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هذأة من الليل ، فرأيت غرفته مظلمة ساكنة ، فظننت أنه خرج لبعض شأنه ، ثم لم ألبث أن سمعت في جوف الغرفة أنة ضعيفة مستطيلة فأزعجني مسمعها وخيل إلي ، وهي صادرة من أعماق نفسه ، كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي ، وقلت : « إن الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه ، وقد بلغ الأمر مبلغ الجهد فلا بد لي من المصير إليه . »

فتقدمت ^(١) إلى خادمي أن يتقدمني بمصباح ، حتى بلغت منزله ، وصعدت إلى باب غرفته ، فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر ، يحاول أن يهبطه ليرودع ساكنه الوداع الأخير .

ثم دخلت ففتح عينيه عندما أحس لي ، وكأنما كان ذاهلاً أو مستغرقاً ، فأدهشه أن يرى بين يديه مصباحاً ضئيلاً ورجلاً لا يعرفه فلبث شاخصاً إلى هتئة لا يتنطق ولا يطرف ^(٢) ، فاقتربت من فراشه وجلست بجانبه ، وقلت :

« أنا جارك القاطن هذا المنزل ، وقد سمعتك الساعة تعالج نفسك علاجاً شديداً ، وغلمت أنك وحدك في هذه الغرفة ، فعناني أمرك ، فجتتك علي استطيع أن أكون لك عوناً على شأنك ، فهل أنت مريض ؟ »

فرفع يده ببطء ، ووضعها على جبهته ، فوضعت يدي حيث وضعها ، فشعرت برأسه يلتهب التهاباً فعلمت أنه محموم ، ثم أمررت نظري على جسمه فإذا خيال سار لا يكاد يبينه رأيي ، وإذا قميص فضفاض ^(٣)

(١) تقدم إلى فلان بكذا : أمره به . (٢) الفضاخ : التوسع .

(٣) طرف فلان بصره : أطلق أسد جفنيه على الآخر .

من الجلد موج فيه بدنه موجاً .

فأمرت الخادم أن يأتيني بشراب كان عندي من أشربة الحمى ، فجرعته منه بضع قطرات ، فاستفاق قليلاً ونظر إلي نظرة عذبة صافية ، وقال :

« شكراً لك . »

فقلت : « ما شكاكك أيها الأخ ؟ »

قال : « لا أشكو شيئاً . »

فقلت : « فهل مر بك زمن طويل على حالك هذه ؟ »

قال : « لا أعلم ! »

قلت : « أنت في حاجة إلى الطبيب ، فهل تأذن لي أن أدعوه إليك لينظر في أمرك ؟ »

فنهذ طويلاً ونظر إلي نظرة دامعة ، وقال : « إنما يغى الطبيب من يؤثر الحياة على الموت ! »

ثم أغمض عينيه ، وعاد إلى ذهوله واستغراقه . فلم أجد بداً من دعاء الطبيب رضى ذلك أم ألى ، فدعوته ، فجاء متأقفاً متذمراً ، يشكو — من حيث يعلم ألى أسمع شكواه — إزعاجه من مرقده وتجيئته نحو الضيقة المظلمة في الليالي الباردة ! فلم أحفل بتعريضه ، لأننى أعلم طريق الاعتذار إليه ، فجلس نبض المريض وهمس في أذني قائلاً :

« إن عليك يا سيدى مشرف على الخطر ، ولا أحسب أن حياته تطول كثيراً إلا إذا كان في علم الله ما لا نعلم . »

وجلس ناحية يكتب ذلك الأمر الذى يصدره الأطباء إلى عمالهم الصيادلة أن يتقاضوا من عبيدهم المرضى ضريبة الحياة ، ثم انصرف لشأنه بعدما اعتبرت إليه ذلك الاعتذار الذى يؤثره ويرضاه .

فأحضرت الدواء ، وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء ، ذاهلة النجم ،

بعيدة ما بين الطرفين ، أسقيه الدواء مرة ، وأبكي عليه أخرى ، حتى اثبتت نور الفجر ، فاستفاق ودار بعينه حول فراشه حتى رآني ، فقال : أنت هنا ؟

قلت : نعم ، وأرجو أن تكون أحسن حالاً من ذي قبل .

قال : أرجو أن أكون كذلك .

قلت : هل تأذن لي يا سيدي أن أسألك من أنت ؟ وما مقامك وحدك في هذا المكان ؟ وهل أنت غريب في هذا البلد أو أنت من أهليه ؟ وهل تشكو بناءً ظاهراً أو هماً باطناً ؟

قال : أشكوهما معاً .

قلت : فهل لك أن تحدثني بشأنك وتفضي إليّ بهمّك كما يفضي الصديق إلى صديقه ، فقد أصبحت معنيّاً بأمرك عنايتك بنفسك ؟

قال : هل تعدني بكتبان أمرى إن قسم الله لي الحياة ، وبإمضاء وصيتي إن كانت الأخرى ؟

قلت : نعم .

قال : قد وثقت بوعدك ، فإن من يحمل في صدره قلباً شريفاً مثل قلبك ، لا يكون كاذباً ولا غادراً .

أنا فلان بن فلان ، مات أبي منذ عهد بعيد ، وتركتني في السادسة من عمري فقيراً معيماً لا أملك من متاع الدنيا شيئاً ، فكفّلني عمي فلان ، فكان خير الأعمام ، وأكرمهم ، وأوسعهم برّاً وإحساناً وأكثرهم عطفاً وحناناً ، فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحداً من قبل غير ابنته الصغيرة ، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلاً . وكأنما سرّه أن يرى لها بجانبها أخاً بعدما غني على الله ذلك زمناً طويلاً فلم يدرك أمنيته ، فعنيّ في عنايته بها وأدخلنا المدرسة

في يوم واحد ، فأنست بها أنس الأخ بأخته ، وأحببتها حباً شديداً ، ووجدت في عشرتها من السعادة والغبطة ما ذهب بتلك الغضاضة التي كانت لا تزال تعاود نفسي بعد فقد أبوي من حين إلى حين .

فكان لا يرانا الرائي إلا ذاهبين إلى المدرسة أو عائدتين منها ، أو لا عيين في فناء المنزل أو مرتاضتين في حديقته ، أو مجتمعين في غرفة المذاكرة أو متحدثين في غرفة النوم ، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمرت في دراستي .

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقداً لا يحله إلا ريب المتون ، فكنت لا أرى لذة العيش إلا بجوارها ، ولا أرى نور السعادة إلا في فجر ابتساماتها ، ولا أؤثر على ساعة أقضيها بجانبها جميع لذات العيش ومسرات الحياة . وما كنت أشاء أن أرى نخصلة من خصال الخير في فتاة من : أدب ، أو ذكاء ، أو حلم ، أو رحمة ، أو عفة ، أو شرف ، أو وفاء إلا وجدت فيها .

وإني أستطيع ، وأنا في هذه الظلمة الخالكة من المومم والأحزان ، أن أرى على البعد تلك الأجنحة النورانية البيضاء من السعادة التي كانت تظللنا ممّا أيام طفولتنا ، فتشرق لها نفسانا إشراق الراح في كأسها .

وأن أرى تلك الحديقة الغناء التي كانت مراح لذاتنا ومسرح آمالنا وأحلامنا ، كأنها حاضرة بين يدي أرى لألاء مائتها ، ولحان حصياتها ، وأفانين أشجارها ، وألوان أزهارها .

وتلك القاعدة الحجرية التي كنا نقتعدها منها طرفي النهار ، فنجتمع على حديث تنجاذبه ، أو طاقة نؤلف بين أزهارها ، أو كتاب نقلب صفحاته ، أو رسم نباري في إتقانه .

وتلك الخمائل الخضراء التي تلجأ إلى ظلالها كلما فرغنا من شوط من

أشواط المسابقة فنشعر بما تشعربه أفراخ الطيور اللاجئة إلى أحضان أمهاتها .
« وتلك الحفائر الصغيرة التي نحتفرها ببعض الأعواد على شاطئ الجداول
والغدران فنملؤها ماء ، ثم نجلس حولها لنصطاد أسماكها التي ألقيناها فيها
بأيدينا ، فنطرب إن ظفرتنا بشيء منها كأننا قد ظفرتنا بغنم عظيم .

« وتلك الأقفاص الذهبية البديعة التي كنا نرى فيها عصافيرنا وطيورنا ،
ثم نقضى الساعات الطوال بجانبها نعجب بمنظرها ومنظر مناقيرها الخضراء ،
وهي تحسو الماء مرة وتلتقط الحب أخرى وتناديها بأسمائها التي سميناها بها ،
فإذا سمعنا صغيرها وتغريدها ظننا أنها تلبى نداءنا .

« ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره في نفسي لابنة عمى ودا وإخاء ، أو
حُبًا وغرامًا ؟ ولكنني أعلم أنه كان بلا أمل ، ولا رجاء ، فما قلت لها يومًا إلى
أحبها ؛ لأنني كنت أضن بها — وهي ابنة عمى ورفيقة صباى — أن أكون أول
فاتح لهذا الجرح الأليم في قلبها . ولا قدرت في نفسي يومًا من الأيام أن أصل
أسباب حياتي بأسباب حياتها ؛ لأنني كنت أعلم أن أبويها لا يسخوان بمثلها على
فتى بائس فقير مثل . ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط ^(١) منها ما
يطمع في مثله المحبون المنسقطون ؛ لأنني كنت أجعلها عن أن أنزل بها إلى مثل
ذلك . ولا فكرت يومًا أن أستشف من وراء نظراتها خبيثة نفسها ؛ لأعلم أى
المتزلتين أنزلها من قلبها : أمتزلة الأخ فأقع منها بذلك ، أم متزلة الحبيب ،
فأستعين بإرادتها على إرادة أبويها ؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل صورة
العذراء المائلة بين يديه في صومعته ، يعبدها ولا يتطلع إليها !

« ولم يزل هذا شأني وشأنها ، حتى تزلت بمعنى نازلة من المرض لم

(١) تسقط فلان الحفر : أعنه شيئاً بعد شيء .

تتشب ^(١) أن ذهبت به إلى جوار ربه . وكان آخر ما نطق به في آخر ساعات
حياته أن قال لزوجته ، وكان يحسن بها ظناً : لقد أعجلني الموت عن النظر في
شأن هذا الغلام ، فكوني له أمًا كما كنت له أبا ، وأوصيك أن لا يفقد منى بعد
موتي إلا شخصي .

« فما مرت أيام الحداد ، حتى رأيت وجوهاً غير الوجوه ونظرات غير
النظرات ؛ وحالاً غريبة لا عهد لي بمثلها من قبل ؛ فتدخلني الهم واليأس
ووقع في نفسي للمرة الأولى في حياتي أنني قد أصبحت في هذا المنزل غريباً ،
وفي هذا العالم طريدًا .

« فإني لجالس في غرفتي صبيحة يوم إذ دخلت على الخادم ، وكانت امرأة
من النساء الصالحات المخلصات ، فتقدمت نحوى تحجلة متعمرة . وقالت :
« قد أمرتني سيدتي أن أقول لك يا سيدى إنها قد عزم على تزويج ابنتها في
عهد قريب ، وإنها ترى أن بقائك بجانبها بعد موت أبيها وبلوغكما هذه السن
التي بلغتها ربما يريبها عند خطيبها ، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنًا هذا
الجناح الذي تسكنه من القصر ؛ فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره
لنفسك من بين منازلها ، على أن تقوم لك فيه بجميع شأنك ، وكأنك لم
تفارقها .»

« فكأنما عمدت إلى سهم رائش فأصممت به كبدى ، إلا أنني تماسكت
قليلاً ريثما قلت لها : « سأفعل إن شاء الله ولا أحب إلي من ذلك . »
فانصرفت لشأنها ، فخلوت بنفسى ساعة أطلقت فيها السيل لعبراتي ، ما شاء
الله أن أطلقها ، حتى جاء الليل ، فعمدت إلى حقيتي فأودعتها ثيابى وكتبى ،

(١) لم تشب : لم تلبث .

وقلت في نفسي :

« قد كان كل ما أسعد به في هذه الحياة أن أعيش بجانب ذلك الإنسان الذي أحبته وأحببت نفسي من أجله ، وقد حيل بيني وبينه فلا آسف على شيء بعده . »
« ثم انسللت من المنزل انسلالاً من حيث لا يشعر أحد بما كان ، ولم أترود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كُلتها^(١) وهي نائمة في سريرها ، فكانت آخر عهدي بها :

لعمرك ما فارت بغداد عن قلبي

لو أنا وجدنا من فراق لها بُداً

كفى حزننا أن رحلت لم أستطع لها

وداعاً ، ولم أجدت بساكنها عهداً

« وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيه حقبة من الزمان فراق آدم جتته ، وخرجت منه شريفاً طريفاً حائراً ملثماً ، قد اصطلحت على المصوم والأحزان . فراق لا لقاء بعده ، وفقر لا ساداً لخلته ، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسياً ، ولا معيناً .

« وكانت معي صباغة^(٢) من مال قد بقيت في يدي من آثار تلك النعمة الذاهبة فاتخذت هذه الحجرة العارية في هذه الطبقة العليا مسكناً فلم أستطع البقاء فيها ساعة واحدة ، فأزمت الرحيل إلى حيث أجد في فضاء الله وتنفس آفاهه علاج نفسي من همومها وأحزانها . فرحلت رحلة طويلة ، قضيت فيها بضعة أشهر ، لا أهبط بلدة حتى تنازعني نفسي إلى أخرى ، ولا تطلع على الشمس في مكان حتى تغرب عني في غيره . حتى شعرت في آخر الأمر

(١) الكُلة : السترة الرفيعة . (٢) الصباغة : البقعة من الشيء .

يسكون في نفسي يشبه سكون الدمع المعلق في متحجر العين لا يفيض ، ولا يفيض .

« فقيعتُ بذلك ، وكان ميعاد الدراسة السنوية قد حان فعدت ، وقد استقر في نفسي أن أعيش في هذا العالم : منفرداً كمجتمع ، وغائباً كحاضر ، وبعيداً كقريب ، وأن ألهو بشأن نفسي عن كل شأن سواه ، وأن أستعين على نسيان الماضي باجتناح مواطنه ومظاهره .

« فلزمت غرفتي ومدرستي أداول بينهما لا أفارقهما ، ولم يبق أثر لذلك العهد القديم في نفسي إلا نزوات تعاود قلبي من حين إلى حين ، فأستعين عليها بقطرات من الدمع أسكبها من جفني في خلوتي من حيث لا يعلم إلا الله ما لي ، فأجد برد الراحة في صدري .

« لبثت على ذلك برهة من الزمان ، حتى عدت بالأمس إلى تلك الفضلة التي كانت في يدي من المال فإذا هي ناضبة أو موشكة . وكنت مأخوذاً بأن أهيم لنفسي عيشاً مستقلاً ، وأن أؤدي للمدرسة نسطاً من أقساطها ، والمدرسة في هذا البلد حانوت قاس لا تباع فيه السلعة نسيئة ، والعلم في هذه الأمة مترقزق يرتزق منه المرتزقون ، لا منحة يمنحها المحسون ، فأهملت نفسي ، وعلمت أني مشرف على الخطر ، ولا أعرف سبيلاً إلى القوت بوجه ولا حيلة .

« فعدت إلى كتيبي ، فاستقيت منها ما لا غنى لي عنه ، وحملت سائرها^(١) إلى سوق الوراقين ، فعرضته هناك يوماً كاملاً ، فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه ، فعدت به حزينا وما على وجه الأرض أحد أذل مني ولا أشقى !

(١) سائر الشيء : باقيه .

« فلما بلغت باب المنزل ، رأيت في فناءه امرأة تُسائل أهل البيت عنى ، فبينتها فإذا هي الخادم التى كانت تخدمنى في منزل عمى .

« فقلت : « فلانة ؟ »

« قالت : « نعم . »

« قلت : « ماذا تريدين ؟ »

« قالت : « لى إليك كلمة فائذن لى . »

« فصعدت معها إلى غرفتى ، فلما دخلونا قلت : « هاتى . »

« قالت : « مرت لى ثلاثة أيام وأنا أفتش عنك فى كل مكان ، فلم أجد من يُدلىنى عليك حتى وجدتك اليوم بعد اليأس منك . »

« ثم انفجرت باكياً بصوت عال : « فراعنى بكأؤها وخفت أن يكون قد حل بالبيت الذى أحبه بأس . »

« فقلت : « ما بكأؤك ؟ »

« قالت : « أما تعلم شيئاً من أخبار بيت عمك ؟ »

« قلت : « لا ، فما أخبره ؟ »

« فمدت يدها إلى ردايها وأخرجت من أضعافه^(١) كتاباً مغلفاً ، فتناولته منها ، ففَضَضْتُ غِلافه ، فإذا هو بخط ابنة عمى ، فقرأت فيه هذه الكلمة التى لا أزال أحفظها حتى الساعة :

« إنك فارقتى ، ولم تُودعنى ، فاغفرت لك ذلك . فأما اليوم وقد أصبحت على باب القبر ، فلا أغفر لك ألا تأتى إلى لتودعنى الوداع الأخير . »

« فألقيت الكتاب من يدى ، وابتدرت الباب مسرعاً ، فتعلقت الخادم

(١) أضعاف الثوب : أثاؤه .

بشوقى ، وقالت : « أين تريد يا سيدى ؟ »

« قلت : « إنها مريضة ، ولا بد لى من المصير إليها . »

« فصحت لحظة ثم قالت بصوت خافت مرتعش : « لا تفعل يا سيدى ،

فقد سبقك القضاء إليها . »

« هنالك شعرت أن قلبى قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم له مكاناً ، ثم دارت لى الأرض الفضاء دورة سقطت على أثرها فى مكانى لا أشعر بشئ مما حولى ، فلم أفق إلا بعد حين : « فتفتحت عبنى ، فإذا الليل قد أظلمنى ، وإذا الخادم لا تزال بجانبى تبكى وتتنحب ، فدنبوت منها ، وقلت : أيتها المرأة أحق ما تقولين ؟ »

« قالت : « نعم . »

« قلت : « قصصى على كل شئ . »

« فأنشأت تقول : « إن ابنة عمك يا سيدى لم تتفع بنفسها بعد رحيلك : « فقد سألتنى فى اليوم الذى رحلت فيه عن سبب رحيلك : « فحدثتها حديث الرسالة التى حملتها إليك من زوجة عمك . »

« فلم ترد على أن قالت : « وماذا يكون مصير هذا البائس المسكين ؟ إنهم لا يعلمون من أمره ولا من أمرى شيئاً . ثم لم يمر ذكرك بعد ذلك على لسانها بخير ولا بشر ، كأنما كانت تعالج فى نفسها ألماً مُميضاً^(٢) . »

« « وما هى إلا أيام قلائل حتى سرى داء نفسها إلى جسمها ، فاستحالت حالها ، غاض ماء جمالها ، وانطفأت تلك الابتسامات العذبة التى كانت لا تفارق ثغرها ، ثم سقطت على فراشها مريضة لا تبلى^(٣) يوماً حتى

(١) مُبِض : مُؤَلَّم . (٢) أبلى من مرضه : نرى منه .

تتسكس أماناً ، فراع أمها أمرها ، وورد عليها ما قطعها عن ذكر العرس والعروس والخطبة والخطيب ، وكانت لا تزال تهتف بذلك نهارها وليلها ، فلم تدع طيباً ولا عائداً إلا فرغت إليه أمرها ، فما أغنى العائد ولا الطيب ! وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويداً رويداً .

« فينا أنا ساهرة بجانب فراشها منذ ليلال إذ شعرت بها تتحرك في مضجعها ، فدنوت منها ، فأشارت إلي أن آخذ بيدها ففعلت ، فاستوت جالسة ، وقالت : « في أى ساعة نحن من الليل ؟ »

« قلت : « في المزيج الأخير منه . »

« قالت : « أنت وحدك هنا ؟ »

« قلت : نعم فقد جمع أهل البيت جميعاً . »

« قالت : « ألا تعلمين أين مكان ابن عمي الآن ؟ »

« فمجيبت لكلمة لم أسمعها منها قبل اليوم ، وقلت : « بلى يا سيدتى أعلم مكانه . »

« وما كنت أعلم شيئاً ، ولكنى أشفت على هذا الخيط الرقيق الباقى في يدها من الأمل أن ينقطع فينقطع بانقطاعه آخر من خيوط أجلها ، فقالت : « ألا تستطيعين أن تحمل إليه رسالة منى من حيث لا يعلم أحد بشأنى ؟ »

« قلت : « لا أحب إلى من ذلك يا سيدتى . »

« فأشارت أن آتيا بمحبرتها فجهتها بها ، فكُتبت إليك هذا الكتاب الذى تراه ، فلما أصبح الصباح خرجت أسائل الناس عنك في كل مكان وأنصف وجوه الغادين والرائحين ، علنى أراك وأرى من يهدينى إليك ، فلم أظفر بباطل حتى انحدرت الشمس إلى مغربها . فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغت حتى سمعت الناعية ، فعلمت أن السهم قد بلغ المقتل ،

وأن تلك الوردة الناضرة التى كانت تملأ الدنيا جمالاً وبهاء قد سقطت آخر ورقة من ورقاتها ، فحزنت عليها حزن التاكل على وحيدها ، وما رُئى مثل يومها يوم كان أكثر باكية وباكياً !

« وكان أكبر ما أهنى من أمرها ، أن كل ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك ، فقاتها ذلك وسقطت دون أمنيته ، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسى ، ولم أزل أطلب السبيل إليك حتى وجدتك . »

« فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت ، فما انفردت بنفسى حتى شعرت أن سحابة سوداء تهب فوق عيني شيئاً فشيئاً حتى احتجب عن ناظرى كل شئ ، ثم لا أعلم ماذا تم بعد ذلك حتى رأيتك . وما وصل من حديثه إلى هذا الحد ، حتى زفر زفرة خلت أن كبده قد ارقضت^(١) أن هذه أفلاذها ، فدنوت منه ، وقلت : « ما بك يا سيدى ؟ » قال لى :

« إلى أطلب دمعة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها ! »

ثم صمت ساعة طويلة ، فشعرت أنه يهمهم ببعض كلمات فأصغيت إليه ، فإذا هو يقول :

« اللهم إنك تعلم أنى غريب فى هذه الدنيا لا سند لى فيها ولا عضد ، وأنى فقير لا أملك من متاع الحياة ما أعود به على نفسى ، وأنى عاجز مستضعف لا أعرف السبيل إلى باب من أبواب الرزق بوجه ولا حيلة ، وأن الضربة التى أصابت قلبى قد سحقته سحقاً فلم يبق فيه حتى الذمء^(٢) . وإنى أسحيك أن

(١) ارقض الشئ : تفرق وترشش . (٢) الذمء : بقية النفس .

أمد يدي إلى هذه النفس التي أودعتها بيدك بين جنبي فأنزعها من مكانها وألقي بها في وجهك ساحطاً ناقماً ، قول أنت أمرها بيدك ، واستردود يمتك إليك ، وانقلها إلى دار كرامتك ، فنعم الدار دارك ، ونعم الجوار جوارك .
ثم أمسك رأسه بيده ، كأنما يحاول أن يجسه عن الفرار ، وقال بصوت ضعيف خافت :

« أشعر برأسي يحترق احتراقاً وقلبي يذوب ذوباً ، لا أحسنى باقياً على هذا ، فهل تعدنى أن تدفنى معها في قبرها وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضاءه ؟ »

قلت : « نعم ، وأسأل الله لك السلامة . »

قال : « الآن أموت طيب النفس عن كل شيء . »

ثم انفض انتفاضة فاضت نفسه فيها !

لقد هون وجدى على هذا البائس المسكين ، أنى استطعت إمضاء وصيته كما أراد ، فسنعت في دفعه مع ابنة عمه ، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعت فيها أن يوافيها ، فمحز عن أن يلبي نداءها حياً فلباها ميتاً .

وهكذا اجتمع تحت سقف واحد ذانك الصديقان الوفيان ، اللذان ضاق بهما في حياتهما فضاء القصر ، فوسعتهما بعد موتهما حفرة القبر .

الشهداء

مترجمة

لم يبق لها بعد موت زوجها وأبويها إلا ولد صغير يؤنسها ، وأخ شقيق يحمو عليها ، وصبيابة من المال ترشفت ^(١) الرزق منها ترشفاً مصانعة للدهر فيها .
أما الصبيابة فقد نصبت ، وأما الأخ فقد ضمه الدهر ضمة ذهبت بماله وبجميع ما تملك يده ، فهاجر هجرة بعيدة لا تعرف مصيره فيها ، فأصبحت من بعده لا تملك مالاً ، ولا عضداً .

لقد لقيت هذه المرأة المسكينة من الشقاء في طلب العيش ما لا يستطيع أن يحتمله بشر ، فحاطت الملابس حتى عشي ^(٢) بصرها ، وغسلت الثياب حتى يست أطرافها . ودخلت المصانع حتى كلفت ، وخدمت في المنازل حتى ذلت ، ولكنها استطاعت أن تحيا ويحيا ولدها بجانبها .

ما كان لخلها أن يحيا على مثل ذلك ، ولكن الله كان أرحم بها من أن يسلبها السعادة ويسلبها العزاء عنها معاً . فقد كانت إذا دجا ليل الحوادث حولها ، وأظلمت الحياة أمام عينيها ، رأت في الأفق البعيد ثلاثة أشعة تبعث من سماء الرحمة الإلهية حتى تتلاقى في فؤادها فتملأه عزاء وصبراً ؛ شعاع الأنس بولدها ، وشعاع الرجاء في أحبها ، وشعاع السرور مما وقعت إليه من صيانة عرصها .

(١) ترشفت الإبل الماء : أخذته قليلاً قليلاً . (٢) عشي بصره : ضعف .

دارت الأيام دورها ، فاكتملت الأم ، وشب الولد ، وانتقل هم قلبها إلى قلبه وكان لا بد له أن يعيش ، وأن يحسن إلى تلك التي طالما أحسنت إليه ، فمشى يتصفح وجوه الرزق وجهاً وجهاً ، ويرد مناهله منهلًا منهلًا ، حتى وقف به حظه على مهمة الرسم فأنس بها ، وما زال يعطيها من نفسه وجده حتى مهر فيها .

والمهارة لا تدل على صاحبها وحدها ، بل هو الذى يدل عليها بحيكته ورقفه ، وما كان الفتى يملك أداة ذلك ، ولا يعرف السبيل إليه ، فاستمر حاملًا معمرًا لا تدرك له مهنته إلا القطرة بعد القطرة في الفينة بعد الفينة^(١) ، فلم يستطع أن يسعد أمه ، ولكنه استطاع أن يسد حلتها فقضت مه بذلك ولزمت منزلها ، ووجدت برد الراحة في صدرها .

إلا أنها كانت إذا ذكرت ذلك الغائب الناقى عنها ، حنت إليه حنين الشيب^(٢) إلى فصاها^(٣) وأحزانتها أنها لم تره منذ خمسة عشر عامًا ، ولم ترمه كتابًا منذ عشرة أعوام حتى اليوم . فلا تجد لها بدءًا كلما حاجها الوحيد إليه إلا أن تلجأ إلى ذلك الملجأ الوحيد الذى يفرغ إليه جميع اليائسين والمحرومين فى بأسائهم وضرائهم ؛ خلوتها ودموعها ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ، ثم تخرج لاستقبال ولدها باشة باسمه ، كأن لم تكن باكية قبل ذلك !

دخل عليها ولدها يومًا فى خلوتها ، فرآها تبكي ورأى فى يدها صورة فتبينها ، فإذا هى صورة خاله ، فألم بسريرة نفسها ، وأمسك بين أهداب عبيه دمة مترقرقة ما تكاد تناسك فمشى إليها حتى وضع يده على عاتقها ، وقال :

(١) الفينة : الحين . (٢) الشيب : جمع ناب ، وهى الناقة الشيبة .

(٣) الفصال : خنثى فصيل ، وهو ولد الناقة أو البقرة إذا فُصل عن أمه .

« رفهى عن نفسك يا أماء فستعلمين خير غائبك عما قليل . »
تطلّق وجهها وأضاء ، وقالت : « وكيف السبيل إلى ذلك ؟ »
قال : « قد علمت أن معرضًا سيقام للرسم فى واشنطن حاضرة أمريكا بعد بضعة شهور ، وأنهم قدروا له جوائز مختلفة صغرى وكبرى ، وقد وعدنى بعض أصدقائى أن يساعدنى على الشخوص إليه ، على أن أستطيع أن أنال ما أقيم به وجهى وأنقد به نفسى ونفسك من هذا الشقاء ، وهنالك أقتش عن عائبك حتى أجده أو أجده منقطع أثره . »

فاستسر بشرها الذى كان متلأكًا ، وقالت : « لا تفعل يا بنى فما أنا بشقية ما رأيك بجائيتى ، وما أنت بشقى ما فعت بما قسم الله لك ، ولكن فعلت ، لا تكون امرأة على وجه الأرض أعظم منى لوعة ولا أشقى ، ولكن بكيت لفراق أخى مرة فمسا بكى لفراقك ألف مرة ، وإنى كلما ذكرته وجدت فى وجهك العزاء عنه ، فمن لى بالعزاء عنكما إن فقدت وجهيكما معًا ؟ »
فما زال يروضها ويمسحها ويمنيها فى رحلته الأمانى العذاب حتى أسلمت وهذأت وأسلمت إلى الله أمرها .

وما هى إلا أيام فلا تلبث حتى ضرب الدهر بينهما بضرباته فإذا الأم وحيدة فى فرنسا لا مؤنس لها ، وإذا الولد غريب فى أمريكا لا يعرف له منزلًا ، ولا عضدًا .

وصل الفتى إلى معرض الرسم فعرض رسمه هاك ، وكان يمثل فيه موقف للوداع الذى جرى بينه وبين أمه على شاطئ البحر يرم رحيله وكان موقفًا محزنًا فأحسن تمثيله ، فأعجب القوم بجماله ، وأثر فى نفوسهم منظره ، فقصوا له بالجائزة التى كان يمتنى نفسه بها . فما حصلت فى يده حتى خيل إليه أنه أسعد أهل الأرض طرًا ، وأن هذا اليوم هو أول يوم هبط فيه عالم الوجود ،

وأنه ما ذاق قبل الساعة مرارة العيش ، ولا رأى صورة الشقاء !
وكذلك يعيش الدهر بالإنسان ما يبعث ، ويذهبه ما يذهبه من صنوف
الشقاء وألوان الآلام ، حتى إذا علم أنه قد أوحشه وأرابه^(١) وملأ قلبه غيظًا
وحقًا، أطلع له في تلك السماء المظلمة المذلّمة بارقة واحدة من بوارق الأمل
الكاذب فاسترده بها إلى حظيرته راصيا معتبطا كما تقاد السائمة البلهاء بأعواد
الكلأ إلى مصرعها ، فما أسعد الدهر بالإنسان وما أشقى الإنسان به !
أرسل الفتى إلى أمه بعض المال واستبقى لنفسه بعضًا ، وكتب إليها أنه لن
يبرح هذه الأرض حتى يفي لها بما عاهدتها عليه ، ومشى في طريقه يمتش عن
خاله في أنحاء البلاد ويسائل عبه كل من لقيه من القاطنين والطارئين^(٢) حتى
حدثه بعضهم أن آهين عهدهم به رحلة رحلها عنهم من بصع سنوات إلى بعض
الجزر الجنوبية في التفتيش عن معدن نحاس هالك ثم لم يعد بعد ذلك .
فمشى في الطريق التي علم أنه سلكها حتى وصل إلى جزيرة موحشة
مقفرة ، وكانت لا تزال تغشى سماء تلك البلاد بقية من ظلمات العصور
الأولى . فمر بقبلة من قبائل الزنغ بارلة هالك وراء بعض الجبال المقطعة ، فما
رأوه حتى هاجت في صدورهم أحقاد تلك العداوة اللونية التي لا يرال
بضمها هؤلاء القوم لكل شيء أبيض ، حتى للشمس المشرقة ، والكواكب
الزاهرة ، فداروا به دورة مقط من بعدها أسيرًا في أيديهم ، فاحتلموه حتى
وصلوا به إلى ديارهم فاحتبسوه هالك في نفق تحت الأرض كانوا يسمونه
« سجن الانتقام » .

هالك علم أن تلك البارقة التي لاحت له في سماء السعادة من الأمل يوم

(١) أرابه : شككه وجعله يرتاب . (٢) الطارئون : المهاجرون .

المعرض، إنما هي خدعة من خدع الدهر وأكذوبة من أكاذيبه ، وأن ما كان
يقدره لنفسه من سعادة وهناء في مستقبل أيامه قد ذهب بذهاب أسس النابر ،
وأصبح صحيفة بالية في كتاب الدهر العابر .

ولقد كان في استطاعته أن يخلد للنازلة التي نزلت به ويستمسك لها لو أنه
استقل بحملها ، ولكن الذي آده^(١) وأثقله ، أن هناك إنسانًا آخر كريمًا عليه
يقاسمه إياها ، فقد أصبح يحمل مصيبته ومصيبة أمه فيه على عاتق واحد .

برلوا به إلى الحبس وقادوه إلى سلسلة عليقة الحلقات فسلكوه فيها ثم أغلقوا
الباب من دونه وتركوه وشأنه ، فما انفرد بنفسه حتى فتح عينيه فلم ير أمامه
شيئًا . فلم يعلم : هل كعب بصره أم اشتدت الظلمة أمام عينيه فحجبت عن
ناظره كل شيء حتى نفسها ؟ فلم يزل في حيرته حتى انقضى الليل ، فاعتمر
إليه من ثقب صغير في حائط الحبس حيط أبيض دقيق من شعاع الشمس حتى
استقر بين يديه، فأنس به أنس الغريب بالغريب، وشكر للشمس رسولها الذي
أرسلته إليه ليؤسسه في وحدته . واستمر بصره عالنا به لا يفارقه أبدا سار وحيثما
انتقل حتى رآه يتقبض شيئًا فشيئًا ، ويتراجع قليلًا قليلًا ، ثم علا إلى ثقبه الذي
اعتمر منه ، ثم طار إلى سمائه التي هبط منها . فحزن لفراقه حزن العشير لفراق
عشيرته ودار بعينه حول نفسه فإذا قطع سوداء مظلمة تتدجج وتتكاثر من
حوله ويملأ بعضها في أحشاء بعض .

وإذا هو نفسه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الخائر في
ظلمات القبور فما كاد يعرف مكانه منها ، فمشى في ذلك المترك المائع يمتش
عن نفسه ويتلمسها بيده تلمسًا ، حتى سمع صلصلة السلسلة الملتفة على قدميه

(١) آده الأمر لوذا : بلغ منه مجهوده .

فوجدتها وكان قد أجهده المسير فساقط على نفسه باكياً متحجاً .

وكذلك انقطع هذا المسكين عن العالم كله خيره وشره ، ولم يبق بينه وبينه من صلة إلا ذلك الشعاع الأبيض الذى يزوره كل صباح ، وذلك السجان الأسود الذى يطرقة كل مساء .

وما مرت به على حاله تلك سنة واحدة حتى نسى نفسه ، ونسى أمه ونسى العالم الذى كان يعيش فيه ، والعالم الذى انتقل إليه ، ونسى الليل والنهار والظلمة والنور ، والسعادة والشقاء . وأصبح فى مرلة بين مترلى الحياة والموت فلا يفرح ولا يتألم ، ولا يذكر الماضى ، ولا يرجو المستقبل . ولا يعلم هل هو حجر بين تلك الأحجار أو قطعة بين قطع العلام ، أو حسد يتحرك ، أو خيال يسرى ، أو وهم من الأوهام أو عدم من الأعدام .

مرت على تلك الأم المسكية بضعة أعوام لا ترى ولدها ولا تجد من يدها عليه فأصبح من يراها فى طريقها ، يرى عجوزاً حدياء واهة متسليبة^(١) مدهوناً بها^(٢) قد توكأت على عصا ما ترال تضطرب فى يدها ، وأسبلت فوق جسمها الناحل المحقوف^(٣) أهداماً^(٤) خلفاً^(٥) يحسبها الناظر إليها لكثرة ما نالت يد البلى منها أهداباً متلاصقة أو يزقاً^(٦) متطائرة ، تقف صدر النهار بأبواب المعابد والكنائس ، تسأل الله أن يرحمها ، والسام أن يطعموها .

حتى إذا زالت الشمس عن كبد السماء أحدث سَمَتها^(٧) إلى شاطئ البحر

(١) للتسليبة : التى أخلت حل زوجها أو غيره . (٢) للمدهوب به : التسلوب عطفه ، ويقال لمن يذهب بك ؟ أى يهلك . (٣) المحقوف : المستترج .

(٤) الأهدام : جمع هدم وهو الثوب البالى المتترقع .

(٥) اليزق : قطع الثوب للمرة . (٦) التزق : الطريق .

وجلست فوق بعض صخوره تناجى أمواجه ورماله ، وترقب أفق البعيد كما يرقب المحجم كوكبه فى أفق السماء . فإذا سرت إلى نسمة وجدت ريح ولدها فيها . وإذا أقبلت عليها موجة ظلت أنها رسول منه إليها . وإذا تراءت لها سفينة ماحرة على سطح الماء حسبتها السفينة التى تحملها . فلا يرال بصرها عالقاً بها لا يفارقها حتى ترسو على الشاطئ فتقف فى طريق ركبائها ، تنصفح الوجوه ، وتتفرس الشمائل ، وتعطف باسم ولدها صارخة معولة ، وتقول :

« عباد الله ، من يلدنى على ولدى ، أو ينشده لى فى معالم الأرض ومجاهلها ؟ فقد أضلته منذ عهد بعيد ، فحارنى الدهر من بعده ، فلا أنا سالية عنه ولا واجلة إليه سبيلاً ، فاحتسبوا يداً عند الله وحديثى عنه هل عاد معكم ، أو تخلف عنكم لياق على إثركم ، أو انقطع الدهر به فلا أمل فيه بعد اليوم ؟ » فلا يلتفت إليها أحد ولا يفهم أحد ما تقول ، وربما غمها بعض الناس فظنها امرأة ملثثة^(١) فرفى لها ، أو سائلة فتصدق عليها .

ولا يزال هذا شأنها فى موقفها هذا حتى ترى الأمهات والأخوات والفتيات ، قد عدن بأولادهن وإخوانهن وآباتهن إلى مازهن ولم يبق على شاطئ البحر من عاد ولا راتح سواها . فتناول عصاها وتعود أدراجها إلى بيتها فتأخذ مجلسها من حافة قبر كانت قد احتفرته بيدها فى أرض قاعتها وتوهمته ملثماً تولدها فظلل تبكى وتقول :

« فى أى بطن من بطون الأرض مضجعتك يا بنى ، وتحت أى نجم من نجوم السماء مصرعتك ، وفى أى قاع من قيعان البحر مثراك ، وفى أى جوف من أجواف الوحوش الضاربة مأواك ؟ »

(١) الملثثة : جثث واحطط .

والقييد ووطائه . ثم طار بجياله إلى ما وراء البحار فذكر أمه وشقاها من بعده ، وحبيبها ، وبأسها من لقائه ، وفترقت عيناه دمة كانت هي أول دمة أرسلها من حفيه من تاريخ شفاؤه . وما زال يرسل المرأة إثر المرأة ، لا يهدأ ولا يستيق ، حتى مضى شطر من الليل وهذا الناس جميعا في مضاجعهم فأسلم رأسه إلى ركبته وذهب بجياله إلى حيث شاء أن يذهب .

فأبانه لكذلك وقد رقت في عينيه سيرة من النوم ، إذ شعر يده تلمس كتفيه فرفع رأسه ، فإذا شبح أبيض قائم فوق رأسه ، فحبل إليه أن ملكا مورانيا نزل إليه من علياء السماء ليغذيه من شفاؤه ، فقبه فأبدا فتاة جميلة يصباء ، ما التفت الأزر^(١) على مثلها حسنا وساء ، تمشي لي يابضها سمرة رقيقة كسمرة السحاب الرهو^(٢) الذي يحاط وجه الشمس في ضحوة النهار ، فسأها :
و من أنت ؟

قالت : « أنا فتاة من خبات هذا الحى ، وقد أمت بشئ من أمرك ، فعلمت أنك شقى فرحلت مما أنت فيه ، فحسبك أطلق وثاقتك لتذهب حيث تشاء ، فلا تكون ية يقدمها الرء بين يدي ربه يوم جزائه أفعل من مواساة البائس وتخرج كربة المكروب . »

فمحب لرحمة يصباء ورونية تعبد الله ، وبربرية تحمل بين جنيتها قلبا يهمل على البرساء والنكوتين . وقال في نفسه : « ما لهذه الفتاة بد من شأن ، وورد عليه من أمرها ما ذهب بلبه ، وملك عليه نفسه وهواه . وأنساء كل شأن في الحياة إلا شأنها فليت صامتا واجما لا ينطق . »
وقال لها : « اذهبي لتسألك يا سيدتى فارتضى لا أريد النجاة . »

(١) الأزر : الرهو .

(٢) الأزر : جمع أزر .

« لو يعلم الطير الذى مرق جنتك ، أو الوحش الذى ولع دمك ، أو القبر الذى ضمتك إلى أحشائه ، أو البحر الذى طورك في حوفه ، أن وراءك أما مسكية تبكي عليك من بعدك لرحوك من أجل ، »

« عد إلى يا بنى فقيرا أو مقعما أو كفيفا ، فحسى سلك أن أراك بجانب الساعة التى أمارق فيها هذه الحياة ، لأقبلك بقلة الدواخ وأعهد إليك بزبارة مضى مطلع كل نفس ومغربا لتخف بزورك عى ضمة القبر ، وتستمر بوجهك الرضاء ظلماته الخالكة . »

« ما أسمع الأمهات اللواتى يسقن أولادهن إلى القبور ، وما أشقى الأمهات اللواتى يسقن أولادهن إليها ، وأشقى من تلك الأم المسكينة التى تدب إلى البوت دينا وهى لاتعلم : هل تركت ولدها وراعا ، أو أنها استجده أمامها ؟ »

وهكذا كان شأنها صاحبها ومساوما ، فلم تزل تبكي ولدها بكاء يعقوب ولده ، حتى ذهب بعمرها ذهاب بعمره ، ولكنها لم تستطع عن يوسف صبرا .

دخل السجنان على الفتى ضحية ليلة في حبه ، فاقرب منه ومد يده إلى سلسله المثنية في الحمار فانزعها من مكانها ، فلم يقل شيئا ولم يسأل نفسه هل هى ساعة نجاة أو ساعة حصاده . ثم قادته إلى خارج الحبس حتى وصل به إلى صخرة جافة على مقربة من مجتمع القبيلة فشند سلسله إليها وتركه مكانه ومضى . ففتح عينه فرأى مكانا عو مكانه ، ومطرا غور مطره ، وساء وأرضا غير سمائه وأرضه ، فبدأ شعوره يعود إليه شيئا فشيئا ، حتى استفاق فذكر ما كان فيه ورأى ما صار إليه .

هالك تذكر السعادة والشقاء ، والغربة والوطن ، والسجن وطلعت ،

قال : هـ وما يمنحك منه ؟

فظفرت إليه نظرة دامية ، وقالت : هـ أخاف أن أجعلك !

قال : هـ ولم تخافين ؟

قالت : هـ لا أعلم .

قال : هـ أنا لا أسألك عما تكمين في صدرك من الأسرار ، ولكني أسألك أن تتركيني وشأني في يد القدر يفعل في ما يشاء ، فقد كنت أخاف الموت قبل أن أراك . أما اليوم فحسبي عزاء عما آلت به من غصمه والآمه نظرة رجمة ثقيتها على في معصرعي ، ودمعة حزن تسكبها من بهدي على نزعتي .

فما استقبلته إلا بدموعها تنحدر على خديها كالمدد وهي يملكه فانتثر ، ثم مدت يدها إلى قيده فمالته حتى انصدح ، وقالت : هـ إلى ذاهبة مملك وليقبض الله في وقت قصاه .

مبشياً بطور يسان القفسار ، وبـعيران الأكلار وبضحيان^(١) كسرة وبخضران^(٢) أخرى ، ويردان آحن^(٣) المياه وصفوها وبقائتان ياسن الثمار ووطها ، فإذا لاح لهما ظل شجرة أو شاطئ عدير أو سفح جبل أوبا إليه فاستراحا بجانبه قليلا ثم عادا إلى شأنهما .

وكانت لا تزال تفتش وجه الفتاة مد فارقت موطنها مسجاة سرفاء من الحزن ما تكاد تفتيح عه . وكانا إذا نزلتا من لاً وأخطا مضجعهما من تر به وأحجاره ، نهضت من مرقدها بعد هدأة من الليل وانضحت ناحية من حيث تنظن أنه لا يضر بكانها ، ومدت يدها إلى صدرها فتناولت صلياً صغيراً

(١) ضحى : نور الشمس (٢) خضر : ترو .

(٣) الأجن من الماء : الذي تنو طممه ولونه

فلمت أنها ثورة من ثورات اليأس ، فلبثت منه ووضعت يدها على عاتقه ، وقالت :

هـ لا تجعل لليأس إلى قلبك أيها الذي سبلاً ، وانح بجانبك من يد الموت فليس بينك وبينه إن بقيت هنا إلا أن يتحدث عن وجهك قناع هذا الليل ، فإذا أنت قلب طاهرة مع شفرات السيوف ، فلا تفجع نفسك في نفسك ، ولا تصبح هذه المسكينة الواقعة بين يديك فإن شديداً على جداً أن أراك بعد قليل ذبيحة في يد الدمايح ، أو مضجعة في فم الأكل .

قال : هـ إنك لا تستطيعين نجاة .

قالت : هـ لا أنهم ما تقول ، فأرني ما جعلك إلا وأنا عاللة ماذا أصبح .

قال : هـ قد كنت قبل اليوم موقناً بوثاق واحد فأصبحت موقناً بوثاقين ، فإن استطعت أن تحل وفاق قديم فأراك لا تستطيعين أن تحل وفاق قديم . فألقت بسيرة نفسه فرفعت وجهها إلى السماء ولبثت شاحصة إليها ساعة ، فرفع رأسه إليها ولبت شاحصاً إلى وجهها نظر المصور الماهر إلى قتاله البديع ، حتى شمر بدمية حارة قد سقطت من جفنها على وجهه ، فحرت في تجرى الدموع من خده فأغلخت من جفنه دمة حلتها فالتفت بدسحها فامترجها مماً .

فمد يده إلى رذائها فاجتذبتها إليه ، وقال : هـ قد طال وقوفك يا سيدتي فاجلسي بجانبى نتحدث قليلاً .

فجلست على مقربة منه ، فقال لها : هـ إن استراح دمعي بدمك في هذه المساحة قد دلى على أسافل تعرف بعد اليوم أحياء أو أموات ، فإن كسب توبتين لي النجاة فأرني لا أنجو إلا بك .

قالت : هـ ليتني أستطيع ذلك يا سيدتي .

• ۱۰۰٪

ਅੰਤਰ-ਰਾਸ਼ਟਰੀ ਸੰਮੇਲਨ : ੧੯੬੫ : ੧੭-੧੮ ਜੁਲਾਈ : ੧੯੬੫

• በጋራ ጥራት ማግኘት

ଶ୍ରୀମତୀ : ଶ୍ରୀମତୀ ଶ୍ରୀମତୀ ଶ୍ରୀମତୀ ଶ୍ରୀମତୀ ଶ୍ରୀମତୀ

[illegible]

مَنْ لَمْ يَجِدِ الْإِسْلَامَ فِي بَيْتِهِ فَلْيُحْسِنِ الْإِسْلَامَ فِي نَفْسِهِ

॥ श्रीगणेशाय नमः ॥

יְהוָה יִשְׁמַר אֶת צְדָקָתְךָ יְהוָה וְיִשְׁמַר אֶת כָּל צְדָקָתְךָ יְהוָה

ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥

[illegible]

ရဲ-အောင်-မယ် : ရှေ့က : နေ့လယ်က ရဲ-မောင် : ၆၀

[illegible][illegible][illegible]

‘‘ལྷན་པ་རྣམས་ཀྱི་འཛིན་པ་ལྟར་མཉམ་སྦྲེལ་བྱས་ནས་འཕུལ་བཞུགས་པའི་

[illegible]

• : אֲנִי הָיִיתִי בְּיָמָיו : אֲנִי :

۱۰۰ : اسم .
 ۱۰۱ : ان ملک ان احبہ .

אין אים געבן די קינדער און זיי זאלן זיך פארקלערן.

[illegible]

१. तत्त्वज्ञानं तत्त्वज्ञानं तत्त्वज्ञानं तत्त्वज्ञानं तत्त्वज्ञानं

ו. אצל הרבנים ר' יצחק ור' יוסף

من یوم انی

הַיְיָ אֱלֹהֵינוּ יִשְׁמְרֵנוּ וְיִשְׁכְּלֵנוּ וְיִשְׁמְרֵנוּ וְיִשְׁכְּלֵנוּ

[illegible]

॥ अथ भक्त्या भक्त्या ॥

[illegible][illegible]

مجلس الشورى في ١٢ من شهر ربيع الثاني ١٣٤٢ هـ

ॐ नमो भगवते वासुदेवाय ॥ श्रीकृष्णाय नमः ॥

ו. למה נקראו חסידים?

[illegible][illegible]

: תורה , התנאים והסוברים : וכן הנהגה :

[illegible][illegible]

المسألة الأولى : في بيان ما هو المراد من قوله تعالى : "وَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى"

[illegible]

وكان لما كان في ذلك الزمان من الخوف والاضطراب في القلوب،

۱. لا یصلحوا فی الذل والخنوع لکفرهم وکفرکم.

[illegible][illegible]

7

فجلس بجانبها فأنشأت تحدّثه ، وتقول :

« أنا فتاة غريبة مثلك عن هذه الديار لا أعرف من ساكنيها غير نفسي ، ولا من أرضها غير قبر قد زال اليوم رسمه وبلى مع الأيام دفينه ، فقد ولدتنى أمى على فراش رجل أبيض وفد من دياركم منذ عشرين عامًا فالتقى بها عند مروره بحبها فأحبها وأحبته ، ثم فرت معي إلى ما وراء هذه الصحراء ، فدانته بدينه ، ثم تزوجها فولدناى وعشنا جميعًا من الدهر عيش السعداء الآمنين .

« وكان رجال قبيلة أمى لا يزالون يتطلّبون السبيل إليها حتى سقطوا عليها سقوط القضاء في جمح ليلة من ليالى الظلام ، فاقادونا جميعًا إلى أرضهم . وكنت إذ ذاك لم أبلغ العشرة من عمري ، فقتلوا أبى أمامى وأمام أمى قتلة لا يزال منظرها حاضرًا بين يدى حتى الساعة لا يفارقنى . محرت أمى عليه حزناً شديداً ما زال يدنو بها من القبر شيئاً فشيئاً حتى جاءت ساعتها ، فحضر موتها رسول من رسل المسيح كان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فدعتنى إليها أمامه ، وقالت لى : « يا بنية إن أمى قد ولدتنى للشقاء في هذا العالم ، وأحسب أبى قد ولدتك له كذلك فحسبنا ذلك ، ولا تكونى سبباً في شقاء أحد من بعدك وانذرى نفسك للعناء نذرًا لا يحله إلا الموت . » فأدعت لأمرها وأشهدت الكاهن على ندرى فتلاً وأوجهها بشراً وسروراً ، ثم نظرت نظرة في السماء وقالت : « ها أبداً على إثرى يارافائيل ، ثم فاصت روحها . »

فاضطرب الفتى عند سماع هذا الاسم وقال لها : « هل تعرفين وطن أبىك وأسرته ؟ »

قالت : « نعم . »

وسمتهما له فاستطيرا فرحاً وسروراً ، وقال : « أحمذك اللهم فقد وجدت

ضالتي . »

فصجبت لأمره ، وقالت : « وأبى ضالة تريد ؟ »

قال : « أتذكرين ليلة اللقاء إذ امتزجت دمعنا ماعاً فقلت لك إنها صلة بينى وبينك لا يقطعها إلا الموت ؟ »

قالت : « نعم . »

قال : « قد كنت أمت^(١) إليك قبل اليوم بحرمة الحب وحدها ، فأصبحت أمت إليك بحرمة الحب والقرى ، فأنت اليوم حبيبتي وابنة حالى معا . »

فقالت بصوت خافت : « أحمد الله فقد وجدت لى في هذه الساعة العصبية أختا . »

وأخذ جسمها يضطرب اضطراباً شديداً ، ووجهها يره^(٢) شيئاً فشيئاً ، فذعر الفتى وارتاع وحنا عليها وقال : « ماذا أرى ؟ »

قالت : « لا ترع ، فأصغ إلى ، فإن لحدى بقية لم تسمعها . إتنى منذ حفظت وصية أمى ووهبت العذراء نفسى ، كان لا بد لى أن أتخذ لى ملجأً أفرع إليه في اليوم الذى أحاف أن يعطس فيه هواى على دينى ، فكنت لا أزال أحمل تلك القارورة معى حتى جاء اليوم الذى خفته فلقحات إليها فتجوت وأستودعك الله . »

فطر الفتى حيث أشارت ، فرأى قارورة مطروحة وراءها فتناولها ، فإذا هى فارغة إلا بقية صفراء في قرارتها ففهم كل شئ .

هالك شعراً كأن شعبة من شعاب قلبه قد هوت بين أضلاعه وكان طائرًا

(١) نث إليه إتصل به . (٢) يره : يتغير لونه

قد نفخ جناحيه ، ثم طار عن رأسه إلى جو السماء فصعق في مكانه صعقة لم يشعر بعدها بشئ مما حوله . فلم يستيق إلا بعد حين ففتح عينيه فإذا الفتاة بجانبه جثة باردة ، وإذا الكاهن صاحب الكوخ واقفاً أمامه يحمل على كفه طعاماً كان قد جاء به إليهما ويقلب نظره حائرًا لا يفهم مما يرى شيئاً . فوثب الفتى إليه حتى صار أمامه وجهًا لوجه ونظر إليه نظرة شذراء كتلك النظرة التي يلقيها الموتور على وجه واتره ، وكأن قد خولط في عقله فأخذ يهذى ، ويقول :

« أتدري أيها الرجل لِمَ ماتت هذه الفتاة ؟ لأنها وهبت نفسها للعذراء ، ثم عرص لها الحب في طريقها فوقعت حائرة بين قلبها وديها فلم تعد لها سبيلاً إلى الخلاص إلا سبيل الانتحار فانتحرت . تلك جرأتكم يا رجال الأديان التي تقترفونها على وجه الأرض . ما كفاكم أن جعلتم أمر الزواج في أيديكم تحبون منه ما تحلون ، وتربطون ما تربطون ، حتى قصيم بتحريمه قصاء مبرماً لا يقبل أحداً ولا رداً .

« إن الذي خلقنا وبث أرواحنا في أجسامنا هو الذي خلق لنا هذه القلوب وخلق لنا فيها الحب ، فهو يأمرنا أن نحب ، وأن نعيش في هذا العالم سعداء هانئين ، فما شأنكم والدخول بين المرء وربه ، والمرء وقلبه ؟

« إن الله بعيد في علماته سماته عن أن تتناول له أبطارنا ، وتتصل به حواسنا ، ولا سبيل لنا أن نراه إلا في جمال مصوغاته وبدائع آياته ، فلا بد لنا من أن نراها ونحبها لنستطيع أن نراه ونحبه .

« إن كنتم تريدون أن تعيش على وجه الأرض بلا حب ، فانتزعوا من بين جنوبنا هذه القلوب الخفاقة ثم اطلبوا منا بعد ذلك ما تشاؤون ، فإننا لا نستطيع أن نعيش بلا حب ما دامت لنا أقدسة خفاقة .

« أنظفون أيها القوم أسما ما خلقنا في هذه الدنيا إلا لتقتل فيها من ظلمة الرّجيم إلى ظلمة الدّير ، ومن ظلمة الدّير إلى ظلمة القبر ؟ بعست الحياة حياتنا إذن وبمس الخلق حقنا . إننا لا نحمدك في هذه الدنيا بسعادة نحيا بها غير سعادة الحب ، ولا نعرف لنا ملجأً نلجأ إليه من هموم العيش وأرزائه سواها ، ففتشوا لنا عن سعادة غيرها قبل أن تطلبوا منا أن نتنازل لكم عنها .

« هذه الطيور التي تغرد في أفنانها إنما تغرد بغمات الحب ، وهذا السيم الذي يتردد في أجوائه إنما يحمل في أعطافه رسائل الحب ، وهذه الكواكب في سماتها ، والشموس في أفلاكها ، والأزهار في رياضها ، والأعشاب في مروجها والسواثم في مراتعها ، والسوارب في أجحارها .. إنما تعيش جميعاً بنعمة الحب . فتى كان الحيوان الأعجم والجماد الصامت ، أيها القساء المستبدون ، أرفع شأننا من الإنسان اللطيف وأحق منه بنعمة الحب والحياة ؟ فهيناً لنا جميعها أنها لا تعقل عنكم ما تقولون ، ولا تسمع منكم ما تنطقون ، فقد نجيت بذلك من شر عظيم ، وشقة مقيم .

« إننا لا نعرفكم أيها القوم ولا ندين بكم ، ولا نعرف لكم سلطان على أجسامنا أو أرواحنا ، ولا نريد أن نرى وجوهكم أو نسمع أصواتكم ، فواروا عنا واذهبوا وحدكم إلى معابدكم أو مغاوركم ، فإننا لا نستطيع أن نتبعكم إليها ، ولا أن نعيش معكم فيها .

« إن وراءنا نساء صعاف القلوب ورجالاً ضعاف العقول ، ونحن نخافكم عليهم أن يمتد شرككم إليهم ، فلا بد لنا أن نقف في وجوهكم ونعرض سبيلكم لذودكم عنهم ، حتى لا تصلوا إليهم فتفسدوا عليهم البقية الباقية من قلوبهم وعقولهم .

« إننا لا نعبد إلا الله وحده ، ولا نشرك به غيره ، ولنا استطاعتنا أن نعرف

الطريق إليه وحديا بدون دليل يدلنا عليه ، فلا حاجة لنا بكم ولا بوساطتكم .
 « كتاب الكون يغنيا عن كتابكم ، وآيات الله تغنيا عن آياتكم ،
 وأماشيد الطبيعة ونغماتها تغنيا عن أماشيدكم ونغماتكم . هذا الجمال المثرق
 في سماء الكون وأرضه ، وناطقه وصامته ومتحركه وساكته ، إنما هو رآة نقية
 صافية ينظر فيها مرى وجه الله الكريم مشرقاً متلألئاً فحراً بين يديه ساجدين ،
 ثم نصغى إليه لستمع وحيه فسمعه يقول لا : أيها الناس إنما خلق الجمال متعة
 لكم فتمتعوا به ، وإنما خلقتكم حياة للجمال فاحيروه .

« ذلك أمر الله الذى نسمعه ولا نسمع أمراً سواه . »

وما إن وصل في حديثه إلى هذا الحد حتى ثقل لسانه ، ووهنت عزيمته ،
 وارتعدت مفاصله ، فسقط في مكانه يزفر زفيراً شديداً ، وبين أنيتاً محزناً ،
 فاقرب منه الشيخ ووضع يده على رأسه ، وقال له :

« ارفق بنفسك يا بنى ، فما أنت بأول تاكل على وجه الأرض ،
 ولا فقيدك بأول راحل عنها ، وإن في رحمة الله ورضوانه عزاء للصابرين
 وجزاء للمحسنين . »

فأهوى الفتى على يده وأخذ يقبلها ، ويقول : « اغفر لى ذنبى يا أبت ،
 فقد كنت من الظالمين . »

قال : « غفر الله لك يا بنى ، فما دون رحمة الله باب موصل ولا رتاج
 معترض . »

قال له : « يا أبت إن هذه الفتاة غريبة عن هذه الأرض ، وليس لها فيها أحد
 سوى ، وقد ماتت من أجل وفى سبيل ، فهل تأذن لى أن أدنو منها لأقلها قبلة
 الوداع فى آخر ساعة من ساعاتها على وجه الأرض ؟ »

قال : « افعل يا بنى . »

فزحف على ركبتيه حتى بلغ مكانها فضمها إليه ضمة شديدة وأهوى بقمه
 على قمها ، فقبلها لأول مرة فى حياته قبلة فاضت روحه فيها .

فى الساعة التى دفن فيها هذان الشهيدان تحت تلك الشجرة المورقة على
 شاطئ ذلك النهر الجارى ، مرت بكوخ العجوز امرأة من جاراتها كانت
 تعادها الزيارة من حين إلى حين . فظرت إلى مكانها الذى اعتادت أن تتحذه
 من حافة ذلك القبر المفتوح فرأته خالياً ، فأشرفت على الحفرة فوجدتها متردية
 فيها معقرة بترابها لا حراك لها ، فملأت بالتراب الذى كان مجتمعاً حول الحفرة
 تلك الأشبار الخمسة التى هى مسافة ما بين الحياة والموت ، ثم أسبلت فوق
 تربتها دمعة كانت هى كل نصيبها من الدنيا !

تصوراته وغرابة أطواره ، ما لا طاقة لمثل باحتفال مثله ، حتى جاعى ذات ليلة
بداية الدواهي ومصيبة المصائب ، فكانت آخر عهده به .

دخلت عليه فرأته واجماً مكتئباً فحييته فأومأ إلى بالتحية إيماء ، فسأله
ما به ، فقال :

« ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص
منه ، ولا أدرى مصير أمرى فيه .
قلت : « وأى امرأة ترهد ؟ »

قال : « تلك التى يسميها الناس زوجتى ، وأسميها الصخرة العاتية في طريق
مطالبى وآمالى . »

قلت : « إنك كثير الآمال يا سيدى فمن أى آمالك تتحدث ؟ »
قال : « ليس لى فى الحياة إلا أمل واحد هو أن أغمض عيني ثم أفتحهما
فلا أرى برقاً على وجه امرأة فى هذا البلد . »
قلت : « ذلك ما لا تملكه ولا رأى لك فيه . »

قال : « إن كثيراً من الناس يرون فى الحجاب رأى ، ويتمنون فى أمره ما
أتمنى ، ولا يحول بينهم وبين نزعه عن وجوه نسائهم وإبرارهم إلى الرجال
بحالسنهم كما يجلس بعضهم إلى بعض إلا العجز والصنف والحية التى لا تزال
تلم بنفس الشرق كلما حاول الإقدام على أمر جديد . »

« فرأيت أن أكون أول هادم لهذا البناء العادى ^(١) القديم الذى وقف سداً
دون سعادة الأمة وارتقاؤها دهرًا طويلاً ، وأن يتم على يدي ما لم يتم على يد أحد
غيرى من دعاة الحرية وأشياعها . »

(١) العادى القديم : سبة إلى قبيلة عاد .

الحجاب

« موضوع »

ذهب فلان إلى أوروبا وما نكر من أمره شيئاً ، طلب فيها بضع سنين . ثم
عاد وما بقى مما كنا نعرفه منه شيء .

ذهب بوجه كوجه العذراء ليلة عرسها ، وعاد بوجه كوجه الصخرة
المساء تحت الليلة الماطرة . وذهب بقلب نقى ظاهر بأس بالغو ويستريح إلى
العذر ، وعاد بقلب ملفف مدحول لا يفارقه السخوط على الأرض وساكنها ،
والقمة على السماء وخالقها . وذهب بنفس غضة خاشعة ترى كل نفس
فوقها ، وعاد بنفس ذهابة نزاعة لا ترى شيئاً فوقها ، ولا تلقى نظرة واحدة
على ما تحتها . وذهب برأس مملوءة حكماً ورأياً ، وعاد برأس كراش التمثال
المنقوب لا يملؤها إلا الهواء المتردد . وذهب وما على وجه الأرض أحب إليه من
دينه ووطنه ، وعاد وما على وجهها أصغر فى عينيه منهما .

وكنت أرى أن هذه الصورة الغريبة التى يترأى فيها هؤلاء الضعفاء من
الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم إنما هى أصابع مفرعة على
أجسامهم إفراغاً ، لا تلبث أن تطلع عليها شمس المشرق حتى تتصل وتتطاير
فرائها فى أجواء السماء ، وأن مكان المدينة العريضة من نفوسهم مكان الوجه
من المرأة ، إذا انحرف عنها زال خياله منها .

فلم أشأ أن أعارق ذلك الصديق وليسته على علاقته وفاءً بعهد السابق
ورجاء لغده المنتظر ، محتملاً فى سبيل ذلك من حقه ووسواسه وفساد

« فرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته ، وخيل إليها أنني جفتها بإحدى النكات العظام والرزايا الجسام ، وزعمت أنها إن برزت إلى الرجال فإنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياءً منهن وحجلاً . »
« ولا نجعل هناك ولا حياءً ، ولكنه الموت والجمود والذل الذي ضربه الله على هؤلاء النساء في هذا البلد أن يعش في قبور مطبوعة من خلورهن ومجرهن حتى يأتين الموت فينتقلن من مقبرة الدنيا إلى مقبرة الآخرة ، فلا بد لي أن أبلغ أميتي ، وأن أعالج هذا الرأس القاسي المتحجر علاجاً ينتهي بإحدى الحسنيين إما بكسره أو بشفائه . »

فورد على من حديثه ما ملأ نفسي هماً وحرناً ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي ، وقلت :

« أحالم أنت أيها الصديق ما تقول ؟ »

قال : « نعم أقول الحقيقة التي أعتقدها وأدين نفسي بها . واقعة من نفسك ونفوس الناس جميعاً حيث وقعت . »

قلت : « هل تأذن لي أن أقول لك إنك عشت فترة طويلة في ديار قوم لا حجاب بين رجالهم ونسائهم ، فهل تذكر أن نفسك حدثت يوماً من الأيام وأنت فيهم بالطمع في شيء مما لا تملك يمينك من أعراض نسائهم ، فملت ما تطمع فيه من حيث لا يشعر مالكة ؟ »

قال : « ربما وقع لي شيء من ذلك فماذا تريد ؟ »

قلت : « أتريد أن أقول لك إنني أعاف على عرضك أن يلم به من الناس ما ألم بأعراض الناس منك . »

قال : « إن المرأة الشريفة تستطيع أن تعش بين الرجال من شرفها وعفتها في حصن حصين لا تمتد إليه المطامع . »

فداخلى ما لم أملك نفسي معه ، وقلت له : « تلك هي الخدعة التي يمدعكم بها الشيطان أيها الضعفاء ، والثلمة التي يعمد بها في زوايا رؤوسكم فينحدر منها إلى عقولكم ومدارككم فيفسدها عليكم ، فالشرف كلمة لا وجود لها في قواميس البعة ومعامها ، فإن أردنا أن نفش عنها في قلوب الناس وأفئدتهم قلما نجدها . والنفس الإنسانية كالعدير الراكد لا يزال صافياً رائقاً حتى يسقط فيه حجر فإذا هو مستقع كدر . والعفة لون من ألوان النفس لا جوهر من جواهرها ، وقلما تثبت الألوان على أشعة الشمس المتساقطة . »

قال : « أتذكر وجود العفة بين الناس ؟ »

قلت : « لا أنكرها لأنني أعلم أنها موجودة بين البله الضعفاء والمتكلفين ، ولكني أنكر وجودها عند الرجل القادر المختار ، والمرأة الحاذقة المترفة إذا سقط بينهما الحجاب وخلا وجه كل منهما لصاحبه . »

« في أي جو من أجواء هذا البلد تريدون أن تبرر نساؤكم لرجالكم ؟ »

« أفى جو المتعلمين ، وفيهم من مثل مرة : « بيم لم يتزوج ؟ فأجاب : نساء البلد جميعاً نساؤى ؟ »

« أم في جو الطلبة ، وفيهم من يتوارى عن أعين خللاه وأترابه حياءً وحجلاً إن خلت محفظته يوماً من الأيام من صور عشيقاته وخطباته ، أو أقفرت من رسائل الحب والغرام ؟ »

« أم في جو الرعاع والغوغاء ، وكثير منهم يدخل البيت خادماً ذليلاً ، ويخرج منه صهراً كريماً ؟ »

« وبعد : فما هذا الولع بقصة المرأة ، واتمطق^(١) بحديثها ، والقيام

(١) كَتَمَطَقَ : صَوَّتَ بِلِسَانِهِ عِنْدَ اسْتِطَابَةِ الطَّعَامِ .

والقعود بأمرها وأمر حجابها وسفورها ، وحرمتها وأسرها ، كأنما قد قمت بكل واجب للأمة عليكم في أنفسكم ، فلم يبق إلا أن تعيصوا من تلك العم على غيركم ١٩

« هذبوا رجالكم قبل أن تهذبوا نساءكم ، فإن عجزتم عن الرجال فأنتم عن النساء أعجز ! »

« أبواب الفخر أمامكم كثيرة ، فاطرقوا أيها شتم ، ودعوا هذا الباب موصداً ؛ فإنكم إن فتحتموه ضحتم على أنفسكم وبلاً عظيماً وشقاء طويلاً .
« أروني رجلاً واحداً منكم يستطيع أن يزعم في نفسه أنه يملك هواه بين يدي امرأة يرضاه ؛ فأصدق أن امرأة تستطيع أن تملك هواها بين يدي رجل ترضاه ! »

« إنكم تكلفون المرأة ما تعلمون أنكم تعجزون عنه ، وتطلبون عندها ما لا تعرفونه عند أنفسكم ، فأنتم تخاطرون بها في معركة الحياة محاطرة لا تعلمون أثر مجونتها من بعدها أم تخسرونها ، وما أحسبكم إلا خاسرين .
« ما شكت المرأة إليكم ظلماً ، ولا تقدمت إليكم في أن تحلوا قيدها وتطلقوها من أسرها ، فما دحولكم بينها وبين نفسها ؟ وما تمضعكم ليلكم ونهاركم بقصصها وأحاديثها ؟ »

« إنها لا تشكو إلا فصولكم وإسفافكم ، ومصايقتكم لها ووقوفكم في وجهها حينما سارت وأبنا حلت ، حتى ضاق بها وجه الفضاء فلم تجد لها سبيلاً إلا أن تسجن نفسها بنفسها في بيتها فوق ما سجن أهلها فأوصدت من دونها بابها ، وأسبلت أستارها ؛ تبرماً بكم وفراراً من فصولكم ، فوا عجبا لكم تسجنونها بأيديكم ثم تقومون على باب سجنها تبكونها وتدبون شقاءها !
« إنكم لا تترثون لها بل تترثون لأنفسكم ، ولا تبكون عليها بل على أيام

قضيتوها في ديار يسيل جوها تبرجاً وسفوراً ، ويتدفق خلاعة واستناراً ، تودون بجدع الأنف لو ظفرتم هنا بذلك العيش الذي خلقتكموه هناك .

« لقد كنا وكانت العفة في ميقاء (١) من الحجاب موكوة (٢) فمازالتم به تقبون في جوانبه كل يوم نقياً والعفة تسلسل منه قطرة فطرة حتى تقبض (٣) وتكترش ، ثم لم يكفكم ذلك منه حتى جتم اليوم تريدون أن تحلوا وكاءه حتى لا تبقى فيه قطرة واحدة ! »

« عاشت المرأة المصرية حقبة من دهرها هادئة مطمئنة في بيتها ، راضية عن نفسها وعن عيشها ، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤديه لنفسها ، أو وقعة تقفها بين يدي ربه ، أو عطمة تعطفها على ولدها ، أو جلسة تجلسها إلى جاريتها تبثها دات نفسها وتستبثها سريرة قلبها ، وترى الشرف كل الشرف في خضوعها لأبيها وانثارها بأمر زوجها ، ونروها عذر ضامها . وكانت تعهم معنى الحب وتحمل معنى الغرام ، فتحب زوجها لأنه زوجها ، كما تحب ولدها لأنه ولدها ، فإن رأى غيرها من النساء أن الحب أساس الزواج رأت هي أن الزواج أساس الحب .

« قلتم لها : إن هؤلاء الدين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلاً ولا أفضل رأياً ، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك ، فلا حق لهم في هذا السلطان الذي يرفعونه لأنفسهم عليك ، فاردت أباهما ؛ وتغردت على زوجها وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرساً من الأعراس الصاحكة مناحة قائمة لا تمهداً نازها ، ولا يحبو أوارها .

« وقلتم لها : لا بد لك أن تختاري زوجك بنفسك حتى لا يمدحك أهلك

(١) الشقاء : بوعاء من الجلد يكون للماء واللين .

(٢) لوكى القرية : شد رأسها بالوكاء ، والوكاء : الرباط .

(٣) قبض : يس .

عن سعادة مستقبلك ؛ فاختارت لنفسها أسوأ مما اختار لها أهلها ، ولم يزد عمر سعادتها على يوم وليلة ثم الشقاء الطويل بعد ذلك والعذاب الأليم .

« وقلم لها : إن الحب أساس الزواج ؛ فما زالت تقلب عينها في وجوه الرجال مصعدة مصوبة حتى شغلها الحب عن الزواج ففتيت به عنه .

« وقلم لها : إن سعادة المرأة في حياتها أن يكون زوجها عشيقها ، وما كانت تعرف إلا أن الروح غير العشيق . فأصحت تطلب في كل يوم روحاً جديداً يحب من لوعة الحب ما أمات الزوج القديم ، فلا قديماً استبقت ولا جديداً أفادت (١) !

« وقلم لها : لا بد أن تتعلمي لتحسن تربية ولدك ، والقيام على شئون بيتك ؛ فعملت كل شيء إلا تربية ولدها ، والقيام على شئون بيتها !

« وقلم لها : نحن لا نتزوج من النساء إلا من نحبها ونرضاها وبلادها وذوقها ذوقنا ، وشعورها شعورنا . فرأت أن لا بد لها أن تعرف مواقع أهوائكم ، ومباح أنظاركم لتجمل لكم بما تحبون ، مراجعت فهرس حياتكم صفحة صفحة فلم تر فيه غير أسماء الخليعات المستهترات (٢) ، والصحكات اللاعبات والإعجاب من والثناء على دكانهن وفطنهن ؛ فتحلمت واستهترت لتبلغ رضاكم ، وتروى عند محبتكم . ثم مشت إليكم هذا الثوب الرقيق الشفاف تعرض نفسها عليكم عرضاً ، كما تعرض الأمة نفسها في سوق الرقيق فأعرضتم عنها وتبوتم بها .»

« وقلم لها : إنا لا نتزوج النساء العاهرات ، كأنكم لا تبالون أن يكون نساء الأمة جميعاً ساقطات إذا سلمت لكم نساؤكم ، مرجعت أدراجها حائرة

(١) أفاد : بمعنى استعاد . (٢) استهتر فلان : اتبع هواه فلا يبال بما يعمل .

مكسرة وقد أياها الخليع ، وترفع عنها المختشم ، فلم تجد بين يديها غير باب السقوط فسقطت .

« وكذلك انتشرت الريبة في نفوس الأمة جميعاً وتمشت الطون بين رجالها ونسائها ، فتعاجز العريقان وأظلم الفصاء بينهما ، وأصبحت البيوت كالأديرة لا يرى فيها الرائي إلا رجالاً مترهين ونساء عانسات .

« ذلك بكأؤكم على المرأة أيها الراحمون ، وهذا رثاؤكم لها وعطفكم عليها ! نحن نعلم ، كما تعلمون ، أن المرأة في حاجة إلى العلم ، فليذهب أبوها أو أخوها ، فالتهديب أضع لها من العلم ؛ وإلى اختيار الروح العادل الرحيم . فليحسن الآباء اختيار الأرواح لبياتهم وليجمل الأزواج عشرة نسائهم . وإلى النور والهواء تبرز إليهما وتمتع فيهما بحمة الحياة ، فليأذن لها أولياؤها بذلك ، وليرافقها رفيق منهم في عدواتها وروحاتها ، كما يرافق الشاة راعيها خوفاً عليها من الذئاب . فإذ عجزنا عن أن نأخذ الآباء والإحوة والأرواح بذلك فلسف أدينا من الأمة جميعها نسائها ورجالها ، فليست المرأة بأقدر على إصلاح نفسها من الرجل على إصلاحها .

« أعجب ما أعجب له في شئونكم أنكم تعلمون كل شيء إلا شيئاً واحداً ، هو أدنى إلى مداركم أن تعلموه قبل كل شيء ، وهو أن لكل تربة نباتاً يبيت فيها ، ولكل نبات زماناً ينمو فيه !

« رأيتم العلماء في أوروبا يشتغلون بكماليات العلوم بين أم قد فرغت من ضرورياتها ؛ فاشتغلتم بها مثلهم في أمة لا يرال سوادها الأعظم في حاجة إلى معرفة حروف الهجاء !

« ورأيتم الفلاسفة فيها ينشرون فلسفة الكفر بين شعوب ملحدة لها من عقولها وآدابها ما يغنيها عن بعض النساء عن إيمانها ؛ فاشتغلتم بنشرها بين أمة ضعيفة

فما زاد الفتى على أن يتسم في وجهي ابتسامة الطير والسحرة ، وقال :
 تلك حركات ما جئنا إلا لما جلبنا ، فلنصطبر عليها حتى يقضى الله بيننا
 وبينها .

قلت له : لك أمر لك في نفسك وفي أملاك فاصنع فيما تشاء ، والآن
 لي أن أقول لك إنى لا أستطيع أن أحط إلى بيتك بعد اليوم إبقاء عليك وعلى
 عصى ، لأنى أعلم أن الساعة التى يفرح لى فيها جانب ستر من أمتار بيتك عن
 وجه امرأة من أملاك تقتلى جئاً وخصلاً . ثم انصرفت ، وكان هذا فراق
 ما بيني وبينه .

وما هى إلا أيام قلائل ، حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلاناً هلك الست
 فى منزله بين سنايه ورحاله ، وأن بيته أصبح ممثلياً لا تزال الحال حاققة بياه ،
 فذرفت عصى دموعه ، لا أعلم هل هى دموع الغيرة على العرض المغال ، أو
 الحزن على الصديق المفقود ؟

مرت على تلك الحادثة ثلاثة أعوام لا أزره فيها ، ولا يزورنى ، ولا اللقاء
 فى طريقه إلا قليلاً فأحبه تحية الغرب للغرب من حيث لا يحرق لما كان بيننا
 ذكر ، ثم انطلق فى سبيل .

فانى لمائد إلى منزلى ليلة أسى ، وقد مضى الشطر الأول من الليل ، إذ
 رأيته خارجاً من منزله يحشى برشية المداخل المطاير ويحلبه جندى من جنود
 الشرطة ، كما هو يحرقه أو يقتاده ، فأهمسى أمره ، ودنوت منه ، فسلأته عن
 شأنه ، فقال :

و لا أعلم لى بشىء سوى أن هذا الجندى قد طرق الساعة بانى يدعو لى إلى
 حفرة الشرطة ، ولا أعلم لى هذه الدعوة فى مثل هذه الساعة سبياً ، وما أنا
 بالرجل المنس ولا المريب ، فهل أستطيع أن أرحوك يا صديقى بعد الذى كان

ساذجة لا يفتها عن إيمانها شىء ، إن كان هناك ما يفتى عنه ؟
 ورائيم الرجل الأوروبي حراً مطلقاً ، يفعل ما يشاء ، ويعيش كما يريد ،
 لأنه يستطيع أن يملك نفسه وحطواته فى الساعة التى يعلم فيها أنه قد وصل إلى
 حدود الحرية التى رسمها لعمه فلا يخطأها ، فأردم أن تحو هذا الحرية
 معها رجلاً ضعيف الإرادة والبرية يعيش من حياته الأدبية فى رأس متحدر
 زلق ، إن زلت به قدمه مرة تدهور من حيث لا يستطيع أن يستمسك حتى
 يبلغ الموة ويتردى فى قرارها .

ورائيم الروح الأورفى الذى أعطأت البيعة خيرة وأرالت خشونة نفسه
 وخرشها يستطيع أن يرى زوجته تخاصر من تشاء ، وتضطحب من تشاء ،
 وتخلو من تشاء ، فيقف أمام ذلك المشهد موقف الحامد التبلد ، فأردم الرجل
 الشرقي القيور الملتقى أن يقف موقفه ، ويستمسك استمسكه .

ورائيم المرأة الأوربية الحرة المعبية فى كثير من مواقفها مع الرجال
 تحتفظ بنفسها وكرامتها ، فأردم من المرأة المصرية الصعبة الساذجة أن تبرز
 للرجال برزها ، وتحتفظ بنفسها احتفاظها ؟

وكل نبات يزرع فى أرض غير أرضه ، أو فى ساعة غير ساعته ، إما أن
 تأباه الأرض خلفه ، وإما أن ينشيب فيها فيفسدها .

وإنا نضرع اليك باسم الشرف الوطنى والحرمة الدينية أن تتركوا تلك
 البقية الباقية من نساء الأمة مطمعات فى يوتن ، ولا تعرضوهن بأحلامكم
 وآمالكم ، كما أزعجت من قلوب . فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا
 جرح الشرف . فإن أينم إلا أن نعملوا ما نطروا بأفكاركم مليلاً ربنا تنزع
 الأياهم من صدوركم هذه الغيرة التى ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتعطوها
 أن تعيشوا فى حياتكم الجديدة سمعاه آمين .

بينى وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا علني أحاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشغون ؟

قلت : « لا أحب إلتي من ذلك »

ومشيت معه صامتًا لا أحدثه ، ولا يقول لي شيئًا ، ثم شعرت كأنه يزور^(١) في نفسه كلامًا يريد أن يفضي به إلتي ، فيمنعه الخجل والحياء ، ففانحته الحديث وقلت له :

« ألا تستطيع أن تذكر لهذه الدعرة شيئًا ؟ »

فنظر إلتي نظرة حائرة ، وقال : « إن أخوف ما أخافه أن يكون قد حدث لزوجتي الليلة حادث ، فقد رايتني من أمرها أنها لم تعد إلى المنزل حتى الساعة ، وما كان ذلك شأها من قبل . »

قلت : « أما كان يصحبها أحد ؟ »

قال : « لا . »

قلت : « ألا تعلم المكان الذي ذهبت إليه ؟ »

قال : « لا . » قلت : « ومم تخاف عليها ؟ »

قال : « لا أخاف شيئًا سوى أني أعلم أنها امرأة غيور حمقاء ، فلعل بعض الناس حاول العيث بها في طريقها ، فشرست عليه ، فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى مخفر الشرطة . »

وكنا قد وصلنا إلى المخفر ، فالتقانا الجندي إلى قاعة المأمور ، فوقتنا بين يديه . فأشار إلى جندي أمامه إشارة لم نفهمها ، ثم استدلى الفتى إليه وقال له : « يسوعلى أن أقول لك يا سيدى إن رجال الشرطة قد عمروا الليلة في مكان من أمكنة الرية برجل وامرأة ، في حال غير صالحة ، فالتقاهما إلى المخفر

(١) زور الكلام في نفسه : مَيَّاه

فوعمت المرأة أن لها بك صلة ، فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها . فإن كانت صادقة أذنًا لها بالانصراف معك إكرامًا لك وإبقاء على شرفك ، وإلا فهي امرأة عاهرة لا نجاة لها من عقاب الفاجرات ، وها هما وراعاك فانظروهما . »

وكان الجندي قد جاء بهما من غرفة أخرى ، فالتفت وراعه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه ، فصرخ صرخة رجفت لها جوانب المخفر وملأت نوافذه وأبوابه عيونًا وآذانًا ، ثم سقط في مكانه مغشيًا عليه . فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها ، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله ودعونا له الطبيب فقرر أنه مصاب بحصى دماغية شديدة ، ولبت ساهرا بجانبه بقية الليل يعالجه حتى دنا الصبح ، فانصرف على أن يعود متى دعونه ، وعهد إلتي بأمره فلبثت بجانبه أرثي لحاله وانتظر قضاء الله فيه ، حتى رأيته يتحرك في مضجعه ، ثم فتح عينيه فرآني ، فلبث شاخصًا إلتي هنيئة كأنما يحاول أن يقول لي شيئًا فلا يستطيعه ، فدنوت منه وقلت له :

« هل من حاجة يا سيدى ؟ »

فأجاب بصوت ضعيف خافت : « حاجتي أن لا يدخل هلتى من الناس أحد . »

قلت : « لن يدخل عليك إلا من تريد . »

فأطرق هنيئة ، ثم رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان^(١) بالدموع ، فقلت :

« ما بك يا سيدى ؟ »

قال : « أتعلم أين زوجتي الآن ؟ »

قلت : « وماذا تريد منها ؟ »

(١) مُخَضِّل : مَبْتَل .

قال : « لا شيء سوى أن أقول لها إلى قد عفوت عنها . »

قلت : « إنها في بيت أبيها . »

قال : « وارجعتهما ولأبيها ولجميع قرومها ، فقد كانوا قبل أن يتصلوا إلى شرفاء أجمادا ، فألبستهم مذ عرفتوني ثوبًا من العار لا تلبوه الأيام . »

« من لي بمن يلبسهم عني جميعًا أنتي مريض مشرف ، وأنتي أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم ، وأنتي أصرع إليهم أن يصنعوا عني ويعتفروا زلتى ، قل أن يسبق إليّ أجل ؟ »

« لقد كنت أقسمت لأبيها يوم اعتديتها (١) أن أصون عرضها صيانتى لحياتى ، وأن أمتنعها مما أمتنع منه نفسى ، فحشت في يمينى ، فهل يعمر لي دى فيغفر لي الله بغفرانه ؟ »

« نعم إنها قتلتنى ! ولكننى أنا الذى وضعت في يدها الحجر الذى أعمدته في صدرى فلا يسألها أحد عن ذنبى . البيت بيتى ، والزوجة زوجتى ، والصديق صديقى ، وأنا الذى فتحت باب بيتى لصديقى إلى زوجتى ، فلم يذنب إليّ أحد سوى . »

ثم أمسك عن الكلام هنيهة ، فظرت إليه فإذا سحابة سوداء تنتشر فوق جبينه شيئًا فشيئًا ، حتى لبست وجهه ، فزفر زفرة خلت أنها خرقت حجاب قلبه ، ثم أשא يقول :

« آه ما أشد الظلام أمام عيني ! وما أضيق الدنيا في وجهي ! في هذه لغرفة ، على هذا المقعد ، تحت هذا السقف كنت أراهما جالسين يتحدثان صملاً نفسى غبطة وسرورًا ، وأحمد الله على أن رزقنى بصديق وثقى يؤنس

(١) اعتدى الرجل امرأته : جمعها إليه وضربها .

زوجتى في وحدتها ، وزوجة سمحة كريمة تكرم صديقى في غيبتى ، فقولوا للناس جميعًا : إن ذلك الرجل الذى كان يفخر بالأمس بدكائه وفطنته ويزعم أنه أكيس الناس وأحزمهم ، قد أصبح يعترف اليوم أنه أبله إلى الغاية من البلاهة ، وعبى إلى العاية التى لا غاية وراءها . والمعا على أم لم تلدنى وأب عاقر لا نصيب له في البنين (١) !

« لعل الناس كانوا يعلمون من أمرى ما كنت أجهل ، ولعلمهم كانوا إذا مررت بهم يتناظرون ويتغامزون ويتسهم بعضهم إلى بعض ، أو يحقدون إليّ ويطيلون الطرقي وجهي ، ليروا كيف تتمثل البلاهة في وجوه الله ، والعبوة في وجوه الأغنياء ! »

« ولعل الذين كانوا يتوددون إليّ ويتمسحون بي من أصدقائى إنما كانوا يفعلون ذلك من أجلها لا من أجل ، ولعلمهم كانوا يسمونى فيما بينهم قوادًا ويسمون زوجتى مومسًا وبتى ماخورًا (٢) ، وأنا عند نفسى أشرف الناس وأنبههم ! »

« فوارحمته لي إن بقيت على ظهر الأرض بعد اليوم ساعة واحدة ، ووالحقًا على زاوية منفردة في قبر موحش يطوينى ويطوى عارى ممي . »

ثم أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغرقه .

وهنا دخلت الحجرة مريض ولده تحمله على يدها حتى وصعته بجانب فراشه ثم تركته وانصرفت ، فما زال الطفل يدب على أطرافه حتى علا صدر أبيه ، فأحس به ففتح عينيه ، فرآه فابتسم لمرآه وضمه إلى صدره ضمة الرفق

(١) يرد : لى لم تولد . (٢) الماخور : بيت الذمارة والفساد .

والحان وأدنى فمه من وجهه ليقبله ، ثم انقصر فجأة واستمر بشره ودفعه عنه بيده دفعة شديدة وأخذ يصيح :

« أبعده عني لا أعرفه ، ليس لي أولاد ولا نساء ، سلوا أمه عن أبيه من هو وادهوا به إليه ! لا ألبس العاز في حياتي وأتركه أثرا خالدا ورائي بعد عماقي .. »

وكانت الموضع قد سمعت صياح الطفل فعادت إليه وحملته وذهبت به ؛ فسمع صوته وهو يتعد عنه شيئا فشيئا فأصت إليه واستعبر باكيا ، وصاح :

« أرجعوه إلي .. » فعادت به الموضع فتناوله من يدها وأشأ يقلب نظره في وجهه ويقول :

« في سبيل الله يا بني ما خلف لك أبوك من اليتيم ، وما خلفت لك أمك من العار فاعمر لهما دنهما إليك ؛ فلقد كانت أمك امرأة ضعيفة فعجزت عن احتمال صدمة انقضاء فسقطت ، وكان أبوك أحسن في جريمته التي اجترمها ، فأساء من حيث أراد الإحسان ! سواء أكت ولدي يا بني أم ولد الجريمة فإني قد سعدت بك حقبة من الدهر فلا أنسى بك عندى حيا أو ميتا ! »

ثم احتضنه إليه ، وقبله في جبينه قبلة لا أعلم هل هي قبلة الأب الرحيم أو المحسن الكريم ؟

وكان قد بلغ منه الجهد فعادته الحمى وغلت نارها في رأسه ، وما زال ينقل شيئا فشيئا حتى خفت عليه التلف ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه مطرة طويلة ثم استردها مملوءة يأسا وحزنا . ثم بدأ يبرع نزعاً شديداً وبين أيدينا مؤلماً ، فلم تبق عين من العيون المحيطة به إلا ارفقت عن كل ما تستطيع أن تجود به من مدامها .

فإننا لجلوس حوله وقد بدأ الموت يسبل أستاره السوداء على سريرته إذا امرأة

مؤتزة بإزار أسود قد دخلت الحجرة ، وتقدمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه ، ثم أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها ، وأخذت تقول له :

« لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك ، فإن أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك ، أنها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها ، فاعف عني يا والد ولدي واسأل الله عندما تغف بين يديه أن تلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك .. »

ثم انعجرت باكياً .. ففتح عييه ، وألقى على وجهها نظرة باسمحة ، كانت هي آخر عهده بالحياة وقصى .

الآن عدت من المقبرة بعد ما دفنت صديقي يدي وأودعت حفرة القبر ذلك الشباب الناضر ، والروض الزاهر ، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامى ورفرائي ، فلا يهون وجدى عليه ، إلا أن الأمة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده ، فاقترحه ، فمات شهيداً فنجت بهلاكه .

تحتفظ به احتفاظ الرجال . إنك ضحككت بالأمس كثيرًا ، فأبك اليوم بمقدار ما ضحككت بالأمس ؛ فالسرور نهار الحياة والحزن ليلها ، ولا يلبث النهار الساطع أن يعقبه الليل القاتم .

« لو أن ما ذهب من يدك من ملكك ذهب بصدمة من صدمات القدر ، أو نازلة من نوازل القضاء ، من حيث لا حول لك ولا حيلة ؛ لكان أمره عليك ، أما وقد أضعت بيدك ، وأسلمته إلى عنوك باختيارك ، فأبك عليه بكاء النادم المتفجع الذي لا يجد له عن مصابه عزاء ولا سلوى .

« لا يظلم الله عبدًا من عباده ، ولا يريد بأحد من الناس في شأن من الشؤون شرًا ولا صيرًا ، ولكن الناس يأبون إلا أن يفعلوا على حافة الهوة الصعبة فترل بهم أقدامهم ، ويمشوا تحت الصخرة البارزة المشرفة فتسقط على رؤوسهم .

« لم تقنع بما قسم الله لك من الرزق ؛ فأيت إلا الملك والسلطان ؛ فتازعت عمك الأمر ، واستعنت عليه بعدوك وعدوه ، فتناول رأسيكما معًا وما زال يضرب أحدهما بالآخر حتى سال تحت قدمكما قليب^(١) من الدم ففرقتا فيه معًا .

« لي فوق هذه الصخرة يا بني الأحمر سبعة أعوام أنتظر فيها هذا المصير الذي صرغم إليه ، وأترقب الساعة التي أرى فيها آخر ملك منكم يرحل عن هذه الديار رحلة لا رجعة من بعدها ؛ لأني أعلم أن الملك الذي يتولى أمره الجاهلون الأغبياء لا دوام له ولا بقاء .

« اتخذ بعضكم بعضًا عدوًا ؛ وأصبح كل واحد منكم حربًا على

(١) القليب : البئر .

الذكرى

« مترجمة »

وقف أبو عبد الله آخر ملوك غرناطة^(١) بعد انكساره أمام جيوش الملك بردياند والملكة إيرايل^(٢) على شاطئ الخليج الرومى تحت ذيل جبل طارق بل نزوله إلى السفينة المعدة لحمله إلى أفريقيا ، وقد وقف حوله نساؤه وأولاده وعظماء قومه من بنى الأحمر . فألقى على ملكه الناهب نظرة طويلة لم سترجمها إلا مبجلة بالدمع ، ثم أدنى رداءه من وجهه وأشأ يكي بكاء مرًا يتشيع بشيخًا محرنا حتى بكى من حوله لبكائه ، وأصبح شاطئ البحر كأنه ساحة قائمة تتردد فيها الرفرافات ، ويسبق العبرات ، فيه لواقف موقفه هذا وقد دهل عن نفسه وموقفه إذ أحس هاتفاً يتف باسمة ، بصوت كأنما ينحدر إليه من علياء السماء ، فرفع رأسه فإذا شيخ ناسك متكئ على عصاه واقف على باب مغارة من مغارات الجبل المشرف عليه ينظر إليه ويقول :

« نعم ، لك أن تبكى أيها الملك الساقط على ملكك بكاء النساء ، فإنك لم

(١) مدينة بالأندلس (أسبانيا) كانت من مراكز الحضارة العربية الإسلامية ، احتلها المرابطون م ١٠٩٠ ، واغلبها بنو الأحمر عاصمة لهم (٦٣٣ - ٨٩٨ هـ / ١٢٣٥ - ١٤٩٢ م) . أهم رعاها العربية : قصر الحمراء .

(٢) كانت إسبانيا في أواخر حكم العرب في الأندلس عدة ممالك صغيرة فانضم بعضها إلى بعض وأصبحت مملكتين قويتين : أراغون وقشتالة ، فتزوج بردياند ملك أراغون بإيرايل ملكة قشتالة سنة ١٤٩٦ ، واتحدتا على طرد العرب من غرناطة ، فم لحما ذلك بعد حروب كثيرة .

صاحبه ؛ فسقم المسلمین إلى مبادئ القتال يضرب بعضهم وجوه بعض ، والعدو رابض من ورائكم يترصد بكم الدوائر ويرى أن كلا منكم قائد من قواده ينبعث بين يديه لقتال أعدائه ، والمناضلة على ملكه ، حتى رآكم تنهاتون^(١) على أنفسكم ضمعا ووهنا فاقتمحكم ، فما هي إلا جولة أو جولتان حتى ظفر بكم ممّا .

• ستقفون غدا بين يدي الله يا ملوك الإسلام ، وسيسألکم عن الإسلام الذي أضتموه وهبطم به من علياء محده حتى ألصقتم أنفسه بالرّعام^(٢) ، وعن المسلمين الذين أسلمتوهم بأيديكم إلى أعدائهم ليعيشوا بينهم عيش البائسين المستضعفين ، وعن مدن الإسلام وأمصاره التي اشتراها آباؤكم بدمائهم وأرواحهم ثم تركوها في أيديكم لتذودوا عنها ، وتحموا ذمارها ، فلم تحركوا في شأنها ساكنا حتى عليكم أعداؤكم عليها ، فأصحتم تعيشون فيها عيش الأدلاء وتطردون منها كما يطرد العرباء ، فمادا يكون جوابكم إن سئلتم عن هذا كله غدا ؟

• ها هي النواقيس ترن في شرفات المآذن بدل الأذان ، وها هي المساجد تطأ نعال الصليبيين في تربتها مواقع جباه المسلمين ، وها هو المسلم يفر يديه من مكان إلى مكان ، ويلوذ بأكتاف المضارب والشعاب ، لا يستطيع أن يؤدي شعيرة^(٣) من شعائره ديه إلا في عار كهذا العار الذي أعيش فيه !

• ليت المسلمين عاشوا دهرهم فوضى لا نظام لهم ولا ملك ولا سلطان ، كما يعيش المشردون في آفاق البلاد ، فقد كان خيرا لهم من أن يتولى أمرهم رجال مثلكم طامعون مستبدون يلقون على أعقابهم جميعا علّا واحدا

(١) هبأئت الشئ : تساقط وتتابع . (٢) الرعام : الغراب . (٣) الشعيرة : كل ما جعل علامة لمباداة الله .

يسوقونهم به إلى موارد التلف والهلاك من حيث لا يستطيعون خوكا عن أنفسهم ، وما تفعل القوضى بأمة ما يفعل بها الاستبداد .

• يسألکم الله يا بني الأحمر عني وعن أولادی الذين انترعتموهم من يدي انتراعا حوج ما كنت إليهم ، وسقتموهم إلى مبادئ القتال ليقاتلوا إخوانهم المسلمين قتالا لا شرف فيه ولا فحار حتى ماتوا جميعا موت الأدلاء الأدياء . فلا أنتم تركتموهم يجانني أسسهم في وحشتي وألجأ إلى معونتهم في شيخوختي ، ولا أنتم ذهبتهم بهم إلى ميدان قتال شريف فأتعزى عنهم من بعدهم بأنهم ماتوا فداء عن دينهم ووطنهم . فها أنذا عائش من بعدهم وحدي في هذا الغار الموحش ، فوق هذه الصخرة المنقطعة أبكي عليهم ، وأسأل الله أن يلحقي بهم فمتى يستجيب الله دعائي ؟

ثم اختنق صوته بالبكاء ، فأدار وجهه ومشى بقدم مطمئة يتوكأ على عصاه حتى دخل مغارته وغاب عن العيون ، فالت كلماته من نفس الأمير ما لم ينل منها ضياع ملكه وسقوط عرشه فصاح :

« ما هذا بشرّا إنما هو صوت العدل الإلهي ينذرني بشقاء المستقبل فوق شقاء الماضي ، فليصنع الله بي ما يشاء ، فعدل منه كل ما صنع . »

ثم انحدر إلى سفينته وانحدر أهله وراءه فسارت السفينة بهم تشق عباب الماء شقا ، فسجل التاريخ في تلك الساعة : أن قد تم جلاء العرب عن الأندلس بعد ما عمروها ثمانمائة عام^(١) .

بعد مرور أربعة وعشرين عاما على تلك الحوادث ، لم يبق في إفريقية حتى من بني الأحمر إلا قضي في العشرين من عمره ، اسمه « سعيد » لم ير غرناطة ،

(١) دخل العرب إسبانيا سنة ٩٢ هـ / ٧١١ م وتم جلاؤهم عنها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م .

ولا قصر الحمراء ، ولا المرح ، ولا جنة العريف ، ولا نهر شليل ، ولا عين
الدمع ، ولا جبل التلح^(١) ، ولكنه ما زال يحفظ في ذاكرته من عهد الطفولة
تلك الأناشيد الأندلسية البديعة التي كان يترنم بها نساء قومه حول مهده ،
ويرددن فيها ذكر آبائه وأجداده وآثار أيديهم وعرة سلطاتهم في تلك البقع ،
وتلك المرائي المحرقة المؤثرة التي بكى فيها شعراء الأندلس ذلك المجد الساقط
والملك المضاع ، فكان كلما خلا إلى نفسه ردد تلك المرائي بنغمة شجية محزنة
تستثير عبرته . وتبيح أشجانته ، فلا يزال يبكي ويتحجب حتى يشرف على
التلف . فكان لا يتمنى على الله من كل ما يتمنى امرؤ على ربه في حياته إلا أن
يرى غرناطة ساعة من زمان يشفى بها غلة نفسه ، ثم ليصع الدهر به بعد ذلك
ما يشاء .

وكان كلما هم بالذهاب إليها ، قعد به عن ذلك أن وراءه عجوزًا من أهله
مریضة ، وما كان يستطيع أن يتركها ، ولا يجد من يعتمد عليه في القيام بشأنها
حتى وافاها أجلها فركب البحر من مينة إلى شاطئ مَلَقَة ، ثم اندثر منها إلى
غرناطة متكرًا في ثوب طيب عرى من أطباء أعشاب يَتَبَقَّلُ^(٢) في حال
الأندلس وسهولها حتى بلغ صاحبها ساعة الأصيل . فوقف على هضبة من
هضاب جبل التلح ، فرأى الأمواه تترلق عنه في هدوء وسكون ، كأنها فوق

(١) قصر الحمراء في غرناطة : مقر ملوك بني الأحمر ، وهو أعظم قصور العالم ولا يزال من أكبر
الآثار التاريخية حتى اليوم . ومرج غرناطة : مشهور بجبال منظره وأطراف مياهه ويشبهونه بقوطة
دمشق . وجنة العريف : بستان عظيم جدًا بقرناطة فيه قصور وبيوت ومنارة كثيرة . ونهر شليل :
أعظم أنهار غرناطة ، وهو يترق المدينة من أعلاها إلى أدناها . وعين الدمع : جبل بظاهر غرناطة
به منارة وبساتين . وجبل التلح : بجانب غرناطة لا يكاد يفارقه الثلج صيفًا وشتاءً وغمرى منه مياه
كثيرة وأنهار صغيرة تسقى ما يحيط بها من المياض والبساتين .
(٢) يَتَبَقَّلُ : يخرج لطلب البقل .

سطحه اللامع المتلألئ قميص من الور ، أو قبة من البلور ، حتى تصل إلى
سفحه فإذا هي حیات بيضاء مذعورة ، تسعث ههنا وههنا لاهم لها إلا السحابة
من يد مطاردها حتى تعثر بجداول ماء في طريقها فتدغم فيه وتنساب في
أحشائه .

ثم التفت إلى المدينة فرأى على البعد أبراجها الحقيقية الحمراء وقبابها العالية
الشماء ، وما أدتها الذاهبة في جو السماء ، فوقف أمام هذا المنظر الجليل المهيب
موقف الخاشع المتحضع ، وصم إحدى يديه إلى الأخرى ، ووضعها على
صدره كأنما هو قائم أمام المحراب يؤدي صلاته ، وليث على ذلك برهة ثم صاح
بصوت عال رددته الغابات والخرجات^(١) يقول :

« هذا ميراث آباءى وأجدادى ، لم يبق لي منه إلا وقفة بين يديه كوقوف
الشاكل المنفجوع بين أهلى الأطلال البوالى والآثار النوارس .

« هذه مضاجعهم ينام فيها أعناؤهم ، وهم لا مضاجع لهم إلا رمال
الصحراء وكثبان العلوات .

« هذه قصورهم ، تشرف على الأرض الفضاء وتطل من عيون نوافذها
كأنما تترقب أن يعودوا إليها فيعمروها كما كانوا فلا يفعلون .

« هذه قباهم وأبراجهم رافعة رأسها ليلها ونهارها إلى السموات العلى ،
تدعو الله أن يعيد إليها بساتينها وحماتها فلا يستجيب لها دعاء .

« في هذه البساتين كانوا ينعمون ، وتحت هذه الظلال كانوا يقيمون ،
وعلى ضفاف هذه الأنهار كانوا يغنون ويروحون ، واليوم لا غناد منهم
ولا رائح ، ولا ساغ تحت هذه السماء ولا بارح !»

(١) الحرجة : غصنة الشجر اللطيفة لا يقدر أحد أن يتعد لها ، أو الشجرة بين الأشجار لا تصل
إليها الآكلة .

ثم نظر إلى الأفق فرأى الشمس تنحدر إلى مغربها ، ورأى جيش الليل يطارده فلول جيش النهار فيبدها بين يديه تبديلاً فتهاقت^(١) على نفسه ، وهو يقول :
« هكذا تدول^(٢) الدولات وتسقط التيجان ، وهكذا تحل الظلمات محل الأنوار ، وهكذا تنتشر سحب الموت على وجه الحياة » .

ثم توسد خراعه واستغرق في نومه بين وطاء الأرض وغطاء السماء ، فلم يستيق حتى مضت دولة الليل ، فمشى إلى هر جاري في سفع الليل فصلب عده صلاة الفجر ، ثم انحدر إلى المدينة يفتش عن خان يأوى إليه ، فلم يجد في طريقه من يرشده إلى طلبته حتى بلغ شليل ، فمشى على ضفته يتفقد أين نور ويتلمس الأعشاب ويتنظر بقعة المدينة بعد هجرتها .

وإنه لذلك إذ انفتح بين يديه باب قصر عظيم ، وإذا فتاة إسبانية خارجة منه قد أسبلت على وجهها حماراً أسود شفافاً ، وأرسلت على صدرها صليلاً ذهبياً صغيراً ، ومشى وراءها غلام يحمل على يده الكتاب المقدس ، فلمحته في مكانه فأدهشها موقفه ، فدنت منه ورفعت قناعها عن وجهها ، فإذا الشمس طالعة حسناً وبهاء ، وقالت له بلسان عري نخالطه بعض المعجمة :
« أغريب أنت عن هذا البلد أيها الفتى ؟ »

قال : « نعم لقد نزلت به الساعة فلم أعرف طريق الخان الذي يأوى إليه الغرباء ، ولم أجد في طريقى من يدلنى عليه » .

فسمعت في صوته رنة الشرف ورأت بين أعطافه مخائل النعمة فأهمها أمره ، وأشارت إليه أن يتبعها لتدله على ما يريد ، فمشى بجانبها حتى بلغا موضع الخان فحيتها باهتمام عذبة ، وقالت له : « لا تنس أن تزورني أيها

(١) تهاقت : تساقط . (٢) تدول : يتقل من حال إلى حال .

الغريب كلما عرضت لك حاجة » . ثم سارت في طريق كنهستها .
كما أن السماء في ظلمة الليل تختلف إليها النجوم فتضي صفحتها وتزهر بها الشهب فتلمع في أرجائها ، حتى إذا طلعت الشمس من مشرقها عا ضوءها ضوء جميع تلك النيرات ، كذلك القلب الإنساني لا تزال تمر به مختلف العواطف وأشتات الأهواء محتمة ومفرقة حتى إذا بلغ وأشرقت عليه شمس الحب ، غربت بجانبها جميع تلك العواطف والأهواء .

فقد أصبح الأمير ينظر إلى غرناطة مد الساعة بعين غير العين التي كان ينظر بها إليها من قبل ، ويرى في وجهها صورة الأنس بعد الوحشة ، والنور بعد الظلمة ، والحياة بعد الموت فسكن نائره وبردت جوانحه ، وهنأت في نفسه ثورة العصب التي كانت لا تزال تعتلج بين أضلاعه . فكان إذا مر بمسجد من تلك المساجد التي استحال إلى كئاس ، استطاع أن يقف أمامه هنيئة عله يرى الفتاة الإسبانية بين الداحلات إليه أو الحارجات منه ، وإذا رأى الصليب مشرفاً على رأس متعذبة ذكر الصليب الذهبي الجميل الذي رآه على صدرها يوم النقاء فاغتفر منظر هذا المنظر داك ، وإذا سمع أصوات النواقيس ترن في أحوار العصاء ، ذكر أنه كان يسمع ذلك الصوت الربان في الساعة التي رآها فيها ، فأنس به وسكنت نفسه إليه .

وكذلك أصبح هذا الأمير المسكين ولا هم له إلا أن يمشى صبيحة كل يوم على ضفاف نهر « شليل » يقلب نظره في أبواب القصور المشرفة على ذلك النهر عله يعرف قصر الفتاة فلا يعرفه ، وفي وجوه الغاديات والرائحات من الغتيات عله يراها بينهن فلا يراها ، حتى إذا نال منه اليأس انكفاً راجعاً إلى مقبرة آبائه في ظاهر المدينة مجلس بين القبور يلحف دموعاً غزيراً ، لا يعلم هل هي دموع الذكرى القديمة أو دموع الذكرى الجديدة !

نكب الدهر « فلورندا » منذ عامين نكبة لا تزال لوعتها متصلة بقلها حتى اليوم ، فقد كان أبوها رئيس جمعية « المصابة المقدسة » التي قامت في وجه الحكومة أعوامًا طويلاً ، تطالبها بالحرية الدينية والشخصية لجميع الشعوب المحكومة على اختلاف مذهبها وأجناسها حتى أعيان رجال الحكومة أمرها ، فدسوا لرئيسها من قتل غيلة^(١) تحت ستار الظلام ، فحزنت ابنته عليه وعلى أمها التي ماتت على أثره حزناً شديداً ما كان يفارقها في جميع عساواتها وروحانياتها . فأصبحت وهي لم تسلم^(٢) النامة من عمرها تعيش في قصورها عيش الزاهدات المتبتلات ، فكان لا يراها الرائي إلا ذاهبة إلى الكنيسة أو عائدة منها لا يصحبها إلا علامها ، أو واقفة على أطلال الدولة الماصية ورسومها تقلب فيها نظر العظة والاعتبار ، أو هائمة على وجهها في مروج غرناطة وبساتينها حتى ينزل ستار الليل فتعود إلى قصرها ، وكذلك كان شأنها في جميع أيامها حتى سماها أهل غرناطة « الراهبة الجميلة » .

فإنها لسائرة يوماً بجانب مقبرة بنى الأحمر ، إذ طفت على البعد فتى عربياً مكباً على أحد القبور كأنما يقبل صمائه ويبل تربته بدموعه ، فرئت لحاله ومشت نحوه حتى دأته فأحس بها ، فرفع رأسه فعرفها وعرفته . فقالت له : « إنك تبكي ملوكك بالأمس أيها الفتى ، فابكهم كثيراً ، فقد جف تراب قبورهم لقلة من يبكي عليهم » .

قال : « أترئين لهم يا سيدى ؟ »

قالت : « نعم ؛ لأنهم كانوا عظماء فكبهم الدهر وليس أحق بدموع الباكين من العظماء الساقطين » .

(١) القصة : الغر . (٢) سَلَخَ الشَّهْر : أمضاه وصار في آخره .

قال : « شكراً لك يا سيدى فهذه أول ساعة شعرت فيها ببرء العزاء يدب في صدري مذ وطئت قدماى أرضكم هذه » .
قالت : « هل زرت قصورهم وآثارهم التي تركوها من بعدهم في هذه الديار ؟ »

فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه ، فإذا دمة ترجح في مقلتيه وقال : « لا يا سيدى . لقد حاولت الدنو منها فطردي عنها لموكلون بأبوابهم ، كأنما هم يجهلون أن ليس بين الأحياء جميعهم في هذا العالم كله من هو أولى بها منى » .

قالت : « أمنت^(١) إلى أحد من أصحابها بنسب أو رحم ؟ »

قال : « لا يا سيدى ، ولكنى عيدهم ومولاهم ، وصنيعة أيديهم ، وغرس نعمتهم ، فلا أنسى ولاءهم ما حييت » .

قالت : « إن رأيتك غداً في مثل هذه الساعة في هذا المكان ذهبت بك إلى ما تريد منها » .

قال : « لكن فعلت لا يكونن امرؤ على وجه الأرض أشكر لنعمتك منى ، فحيته وانصرفت ، ومضى هو إلى خبائه بين صباة تقيمه وتقده ، وأمل بميته وبحيه » .

وفت « فلورندا » لصديقها العربى عما وعدته به ، فجاءته في اليوم الثانى فأزارته بعض الآثار ، ثم جاءته في اليوم الثالث فأزارته بعضاً آخر منها ، وهكذا ، ما رالا يجتمعان كل يوم ويفترقان ، ويحتلمان إلى ما شاءا من الرسوم والآثار لا ينكر الناس من أمرها شيئاً ، فقد كانوا يقولون إذا رأوها معاً : إن الراهبة

(١) مَتَّ إِلَيْهِ : أَصْلَ يَوْ .

الجميلة تحاول أن تهدى العنى العرى إلى ديبها القويم ، حتى اسبحال العطف
الذى كانت تضمه له في نفسها مع الأيام إلى حب شديد ، وكذلك العطف
دائماً طريق الحب أو هو الحب نفسه لا يساً ثوباً غير ثوبه . إلا أن أحداً منهما
لم يجرؤ أن يكشف صاحبه عما أضمره له في نفسه ، حتى جاء اليوم الذى عزم
على زيارة قصر الحمراء ، وهو آخر ما بقى بين أيديهما من الآثار ، فلا لقاء
بينهما بعد اليوم .

وقف الأمير أمام قصر الحمراء فرأى سماء تطلو السماء ، وطوّداً^(١)
بساطح الجوزاء ، وهضبة تشرف على الهضاب ، وسحابة تمر فوق السحاب ،
وجبالاً تحسّر^(٢) عن قمته العيون ، وتضل في جوانبه الطون ، وحصناً
تتقاصر عنه يد الأيام ، وتهاافت من حوله السنون والأعوام .

ثم دخل فإذا ملك كبير وجنة وحرير ، وقباب تفضى إليها النجوم بالأسرار ،
وأبراج تترلق عن سطوحها يد الأقدار ، وصحون مفروشة بألوان الحصباء ،
كأنها الرياض الزاهر ، وجدران صقيلة ملساء نصف ما بين يديها من
الأشياء ، كما تصف المرأة وجه الحسناء ، وكأن كل جدار منها لجة^(٣)
متلاطمة الأمواج يجبسها عن الحريان لوح من رجاح ، فمشى بقلب بطر
العطة والاعتبار ، بين تلك المشاهد والآثار ويتعم في نفسه بقول القائل :

وقفت بالحمراء مُنتَغِيراً

مُعَبِّراً أنشدب أشاتاً

فقلت: يا حمراء هل رجعت ؟

قالت: وهل يرجع من ماتا ؟

(١) الطود : الجبل . (٢) تحسّر : تكل وتصف ، أى لا يستطيع الوصول إلى
قمة لمطم ارتفاعه . (٣) لجة : ماء كبير .

فلم أزل أبكى على رسمها

هيات يُنسى الدمع هياتا

كأنما آثار من قد مضوا

نوادب يندبن أمواتا

حتى وصل إلى الساحة الكبرى فرأى صحنًا مفروشًا ببساط من المرمر
الأصفر قد دارت به في جهاته الأربع أربعة صفوف من الأعمدة الحاف
الطوال ، وتراءت في جوانبه حجرات متقابلات ، تعلوها قباب مشرفات ،
فعلم أنها حجرات الأمراء والأميرات من أهل بيته مهاجت في نفسه الذكرى ،
وشعر أن صدره يحول أن ينشق عن قلبه حزناً ووجعاً .

وأحس بحاجة إلى البكاء فاستحيا أن يبكى أمام « فلورندا » فتركها في
مكاتبها لاهية عنه بالظر إلى بعض النقوش ، ومشى إلى بعض تلك القاعات
حتى داناها ، فكان أول ما تناول بطره منها سطرًا مكتوبًا على بابها فما قرأه
حتى صاح صيحة شديدة قائلاً : « وا ابتاه اه وسقط معشياً عليه ، فلم
يستبق إلا بعد ساعة طويلة ، ففتح عيبه فوجد رأسه في حجر « فلورندا »
ووجد في عينيها آثار البكاء ، فقالت له :

« لقد كنت أعلم قبل اليوم أنك تكتمنى شيئاً من أسرار نفسك ، والآن
عرفت أنك لست عبد بنى الأحمر ولا مولاهم كما تقول ، ولكك أحد
أمرائهم ، وأنت الساعة في قصر حذك وأمام حجرة أهلك . فما أسوأ حظكم
يا بنى الأحمر ، وما أعظم شقاءك أيها الأمير المسكين ! »

فلم يجد سبلاً بعد ذلك إلى كتمان أمره ، فأسأ يقص عليها قصته وقصة
أهل بيته وما صنعت يد الدهر بهم مذ جلوا عن الأندلس حتى اليوم ، فلما فرع
من قصته نظر إليها نظرة منكسرة وقال لها :

« فلورندا ، إن جميع ما لقينته من الشقاء بالأمس يصغر بجانب الشقاء الذى تدخره لى الأيام غداً . »

قالت : « وأى شقاء ينتظرك أكثر مما أنت فيه ؟ »
فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وقال : « إسى أستطيع أن أحتمل كل شىء فى الحياة إلا أن أفارقك فراقاً لا لقاء من بعده ! »
قالت : « أتخبنى أيها الأمير ؟ »

قال : « نعم ، حب الزهرة الذابلة للقطرة الماطلة . »
قالت : « وهل تستطيع أن تحب فتاة مسيحية لا تدين بدينك ؟ »
قال : « نعم لأن طريق الدين فى القلب غير طريق الحب ، ولقد وجدت فيك الصفات التى أحبها فأحببتك لها ، ثم لا شأن لى بعد ذلك فيما تعتقدين . »

قالت : « وهل تستطيع أن تحب بلا أمل ؟ »
قال : « ولم لا يكون الحب نفسه غاية من الغايات التى نجد فيها السعادة إن ظفروا بها؟ ومتى كان للسعادة فى هذه الحياة نهاية محدودة ، فلا نجد الراحة إلا إذا وصلنا إلى نهايتها ؟ »

وكان الليل قد أطلهما ، فبرحا مكاهما ومشيا يتحدثان حتى بلغا الموضع الذى اعتادا أن يفترقا فيه ، فوضعت « فلورندا » يدها فى يده وقالت له : « سأحبك كما أحببتى أيها الأمير ، وسيكون حبيبى لك بلا أمل كحبيبى . ولقد فرقت الدين بين جسدنا ، فليجمع الحب بين قلوبنا . » وتركته وانصرفت .
ثم مرت بهما بعد ذلك أيام سعيدة فيها بنعمة العيش سعادة أنستهما جميع ما لقيتا فى حياتهما الماضية من شقاء وعناء ، فأصبحا فوق أرض غرطة ونمت سمانها طائرين جميلين يطيران حيث يصفو لهما وجه السماء ، وتترقرق صفحة

الهواء ويقعان حيث يطيب لهما التفريد والتقدير ، فليت الدهر ينال منهما ويتركهما وشأهما ، ولا ينقُص عليهما هذه الساعات القليلة من السعادة التى ابتاعها بكثير من دموعهما وآلامهما ، والتى لا يملكان من سعادة الحياة سواها ، فإن خسراها خسران كل شىء .

بينما جالسان ذات يوم على ضفة جدول من جداول عين الدمع إذ مر بهما « الدون رودريك » ابن حاكم مدينة غرناطة ، فرأى فى مجلسهما هذا من حيث لا يريدانه ، وكان قد رأى « فلورندا » قبل اليوم فأحبها فاختلف إلى مرها أياماً يتحجب إليها ويدعوها إلى الزواج منه فأبت أن تصفى إليه ، وقالت له : إسى لا أتزوج ابن قاتل أبى ، فأنصرف بلوعة لا ترال فأنصرف فى نفسه حتى اليوم . فلما رآها جالسة مجلسها هذا زعم فى نفسه أنها ما أوصدت باب قلبها فى وجهه إلا لأنها كانت قد تحته من قبل لذلك الفتى العربى الجميل الذى يجالسها ، فذهب إلى قصرها فى اليوم الثانى ليعضى إليها بما وقع فى نفسه ، فأبت أن تقابله ، فخرج غاضباً يحدث نفسه بأفزع أنواع الانتقام .

وما هى إلا أيام قلائل حتى سبق الأمير سعيد بن يوسف بن أبى عبد الله ، سليل بنى الأحمر ملوك هذه البلاد بالأمس ومؤسس مجدها وعظمتها ، وبيعة قلاعها وحصونها ، وأصحاب قصورها وبساتينها ، دليلاً مهائلاً إلى محكمة التفتيش^(١) متهمًا بمحاولة إغراء فتاة مسيحية بترك دينها ، وهى عندهم أنظع الجرائم وأهولها .

وقف الأمير أمام قضاة محكمة التفتيش فسأله الرئيس عن تهمة فأذكرها فلم يحفل بإنكاره ، وقال له :

(١) أنشئت فى إسبانيا عام ١٤٧٨ بقصد استئصال البدع ، واستخدمت وسائل العنف البالغ فى عمليات التحقيق والتعذيب والإعدام .

« لا يدل على براءتك إلا أمر واحد ، وهو أن تترك دينك وتأخذ بدين المسيح ! » فطار الغضب في دماغه ، وصرخ صرخة دوت بها أرجاء القاعة وقال :

« في أى كتاب من كتبكم ، وفي أى عهد من عهود آبائكم ورسلكم أن سفك الدم عقاب الذين لا يؤمنون بإيمانكم ، ولا يدينون بدينكم ؟
« من أى عالم من عوالم الأرض أو السماء أتيت بهذه العقول التى تصور لكم أن الشعوب تساق إلى الإيمان سوقاً ، وأن العقائد تسقى للناس كما يسقى الماء والخمر ؟

« أين العهد الذى اتخذه على أنفسكم يوم وطئت أقدامكم هذه البلاد أن تتركوا أحراراً فى عقائدنا ومداهسا ، وأن لا تؤذونا فى عاطفة من عواطف قلوبنا ، ولا فى شعيرة من شعائر ديننا ؟

« أهذا الذى تصنعون اليوم ، والذى صنعم بالأمس ، هو كل ما عندكم من الوفاء بالعهود والرعى للدم ؟

« نعم لكم أن تفعلوا ما تشاءون ؟ فقد خلا لكم وجه البلاد وأصبحت أصحاب القوة والسلطان فيها ، وللسلطان عزة لا تبالي بعهد ولا وفاء .

« إن العهود التى تكون بين الأقرباء والصنماء إنما هى سيف قاطع فى يد الأولين ، وغِْلٌ ملتف على أعناق الآخرين ، فلا أقال الله عثرة اللهاء ولا أفر عيون الأغبياء !

« أنتم أقرباء ونحن ضعفاء ، فأنتم أصحاب الحق الأبلح والحجة القائمة ؛ فاصنعوا ما شئتم فهذا حقكم الذى يحولكم إياه قوتكم .

« اسفكوا من دمائنا ما شئتم ، واسلبوا من حقوقنا ما أردتم ، واملكوا علينا مشاعرنا وعقولنا حتى لا ندين إلا بما تدينون ، ولا نذهب إلا حيث تذهبون

فقد عجزنا عن أن نكون أقرباء ؛ فلا بد أن ينالنا ما ينال الضعفاء !
ثم حاول الاستمرار فى حديثه فقاطعه الرئيس وأمر أن يساق إلى ساحة اموت التى هلك فيها من قبله عشرة آلاف من المسلمين قتلاً أو حرقاً ، فسبق إليها واجتمع الناس حول مصرعه رجالاً وساء ، وما حرد الخلد سبعة فوق رأسه حتى سمع الناس صرخة امرأة بين الصفوف ، فالتفتوا فلم يعرفوا مصدرها ، وما هى إلا غمصة واتباهة أن سقط ذلك الرأس الذى ليس له مثيل .

يمر المار اليوم بجانب مقبرة بنى الأحمر فى ظاهر غرناطة قبراً جميلاً مرخرفاً ، هو قطعة واحدة من الرجام الأرقق الصاقي ، قد نحتت فى سطحها حفرة جوفاء تمتلئ بماء المطر ، فيهبى إليها الطير فى أيام الصيف الحار فيشرب منها ، ونقشت على ضلع من أضلاعها هذه السطور :

« هذا قبر آخر بنى الأحمر ،

« من صديقه الوفية بعهده حتى الموت »

« فلورندا فيليب »

أعوام ، فكان أول همى يوم هبطت أرضها أن أراه ، فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل ، فرأيت ما لا تزال حسرتي متصلة بقلبي حتى اليوم . تركت هذا المنزل فردوساً صغيراً من فراديس الجنان تراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة ، وتترقق وجوه ساكنيه بشراً وسروراً ، ثم زرته اليوم فخيّل إليّ أنني أمام مقبرة موحشة ساكنة ، لا يهتف فيها صوت ، ولا يترأى لي جوانبها شبح ، ولا يلمع في أرجائها مصباح ؛ نظنت أني أخطأت المنزل الذى أريده ، أو أنني بين يدي منزل مهجور . حتى سمعت بكاء طفل صغير ولحت في بعض النوافذ نوراً ضعيفاً فمشيت إلى الباب فطرقت ، فلم يجيبني أحد فطرقت أخرى ، فلمحت من خصاصه^(١) نوراً منبلاً ، ثم لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسحال بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلاً ، فتألمته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه ، فعرفت أنه ذلك الطفل الجميل المدلل الذى كان بالأمس زهرة هذا المنزل وبدر جمائه ، فسألته عن أبيه فأشار إليّ بالدخول ومشى أمامي بمصباحه ، حتى وصلني إلى قاعة شعناء مقبرة بالية المقاعد والأستار . ولولا نقوش لاحت لي في بعض جدرانها كباق الوشم في ظاهر اليد — ما عرفت أنها القاعة التي قضيتها ليالي السعادة والهماء اثني عشر هلالاً .

ثم جرى بيني وبين العلام حديث قصير عرف به من أنا وعرفت أن أباه لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنه عائد عما قليل ؛ ثم تركني ومضى ، وما لبثت إلا قليلاً حتى عاد يقول لي إن والدته تريد أن تمدثني حديثاً يتعلق بأبيه ، فحفظت قلبي حفيظة الرعب والخوف ، وأحسست بشراً لا أعرف ما تأه^(٢) .

(١) الشخصان من جنس شخصنة ، وهى كل فرجة لو تحرق في سبب أو غيره

(٢) المآق : الوجه الذى يأتي منه الشيء .

الهاوية

موضوعة

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها ؟ !

لم أعش من نبت الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عاماً واحداً ، مر لي كما يمر النجم الذهري في سماء الدنيا ليلة واحدة ، ثم لا يراه الناس بعد ذلك .

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتش عن صديق ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته ، والزارع إلى ماشيته ، فأعورني ذلك حتى عرفت : فلاناً منذ ثمانية عشر عاماً فعرفت امرئاً ما شئت أن أرى نخلة من حلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وحدتها فيه ، ولا تحببت صورة من صور الكمال الإنساني في وجه إنسان إلا أضعت لي في وجهه ؛ فحللت مكانه عدى وبرل من مسمى مرله لم يرها أحد من قبله ، وصفت كأس الود بيني وبينه لا يكدرها علينا مكدر .

حتى عرض إليّ من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقرى ؛ فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي ، غير آسف على شيء فيها إلا على مراق ذلك الصديق الكريم ، فتراسلنا حفية من الزمن ثم فترت عني كفيه ثم انقطعت ، فحزنت لذلك حزناً شديداً وذهبت في الصور في شأنه كل مذهب ؛ إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه ، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حابه قعدني عن ذلك هم كان يقعدني عن كل شأن حتى شأن مسمى فلم أعد إلى القاهرة ولا بعد

ثم التفت فإذا امرأة ملتفة برداء أسود واقفة على عتبة الباب ، فحيتني فحييتها ، ثم قالت لي : « هل علمت ما صنع الدهر بفلان من بعدك ؟ »
قلت : « لا » فهذا أول يوم هبطت فيه هذا البلد بعد ما فارقه سبعة أعوام .

قلت : « لبتك لم تفارقه » فقد كنت عصمته التي ينصم بها وجهاء من غوائل الدهر وشروره ، فما هو إلا أن فارقه حتى أحاطت به زمرة من زمر الشيطان ، وكان فتى ، كما تعلمه ، غريباً ساذجاً ، لما زالت تغريه بالشر وتزين له منه ما يزين الشيطان للإنسان ، حتى سقط فيه ، فسقطنا جميعاً في هذا الشقاء الذي تراه .

قلت : « وأى شر تريدني يا سيدتي ؟ ومن هم لديس أحاطوا به فأسقطوه ؟ »

قلت : « سأقص عليك كل شيء فاستمع لما أقول :

« ما زال الرجل يغير حتى اتصل بفلان رئيس ديوانه ، وعلقت حباله بحاله ، وأصبح من خاصته لادين لا يمارقون مجلسه ، حيث كان ، ولا ترال ، نعالهم حافقة وراعه في عدواته وروحاته ، فسندل من ذلك اليوم أمره ، وتكررت صورة أخلاقه ، وأصبح منقطعاً عن أهله وأولاده ، لا يراهم إلا الفتية بعد الميتة ^(١) ، وعن مبره لا يروره إلا في تحريات الليالي . ولقد اغتبطت في مبدأ الأمر بتلك الحفلة التي نالها عند ذلك الرئيس والمنزلة التي نالها من نفسه ، ورجوت له من ورائها حيزاً كثيراً ، معتمة في سبيل ذلك ما كنت أشعر به من الوحشة والألم لانقطاعه عني وإغفاله أمري وأمر أولاده ،

حتى عاد في ليلة من الليالي شاكياً متألماً يكاهد غصصاً شديدة وآلاماً جساماً ، فدنوت منه ، فشممت من فمه رائحة الخمر ، فعلمت كل شيء .
« علمت أن ذلك الرئيس العظيم هو قدوة مرزوسه ، في الخير إن سلك طريق الخير ، والشر إن سلك طريق الشر ، قاد زوجي الفتى المسكين إلى شر الطريقين ، وسلك به أسوأ السبيلين . وأنه ما كان يتخذة صديقاً كما زعم ، بل يديماً على الشراب ، فتوصلت إليه بكل عزيز عليه ، وسكنت على يديه من الدموع كل ما تستطيع أن تسكبه عين ، رجاء أن يعود إلى حياته الأولى التي كان يحياها سعيداً بين أهله وأولاده فما أجدت عليه شيئاً .

« ثم علمت بعد ذلك أن اليد التي ساقته إلى الشراب قد ساقته إلى اللعب ، فلم أعجب لذلك ؛ لأنني أعلم أن طريق الشر واحدة ، فمن وقف على رأسها لا بُدَّ له أن ينحدر فيها حتى يصل إلى نهايتها . فأصبح ذلك الفتى السبل الشريف ، الذي كان يعف بالأمس عن شرب الدواء إذا اشتم فيه رائحة النبيذ ، ويستحي أن يجلس في مجتمع يجلس فيه قوم شاربون — سكيراً مقامراً مُستَهْتِراً لا يحتشم ، ولا يتلوم ، ولا ينفي عاراً ولا مائماً .

« وأصبح ذلك الأب الرحيم والزوج الكريم ، الذي كان يرض بأولاده أن يعلق بهم الذر ، ويزوجه أن يتجههم ^(١) لها وجه السماء ، أباً قاسياً وزوجاً سليطاً ، يضرب أولاده كلما دنوا منه ، ويشتم زوجته وينتهرها كلما رآها . وأصبح ذلك الرجل الغيور الضنين بعرضه وشرفه لا يبالي أن يعود إلى المنزل في بعض الليالي في جمع من عُشرائه الأشرار ، فيصعد بهم إلى الطبقة التي أنام فيها أنا وأولادي فيجلسون في بعض غرفها ، ولا يزالون يشربون

ويقصفون^(١) حتى يذهب بقولهم الشراب ؛ فينأجوا ، ويرقصوا ، ويملاؤوا
الجو صراخاً وهتافاً ، ثم يتعادوا^(٢) بعضهم وراء بعض في الأبياء^(٣)
والبحرات حتى يلحوا على باب عرسي . وري حديق بعضهم في وحيي أو
حاول برع بخدي على مرأى من روي ومسمع فلا يقول شيئاً ، ولا يستنكر
أمراً ، فأمر بين أيديهم من مكان إلى مكان . وربما فررت من امرل جميعه
وخرجت بلا إزار ، ولا حمار ، غير إزار الظلام وخماره ، حتى أصل إلى بيت
جارية من جاراتي ؛ فأقضي عندهم بقية الليل .
وهنا تغيرت نعمة صوتها ، فأمكنك عن الحديث وأطرقت برأسها ،
فعلمت أم تكي ، فكيت يبي وبين نفسي لكائها ، ثم رفعت رأسها ،
وعادت إلى حديثها تقول :
« وما هي إلا أعوام فلائيل حتى أنفق جميع ما كان في يده من المال ، فكان
لا بد له أن يستدين ففعل ، فأثقله الدين ، فرهن ، فحجز عن الوفاء ، فباع
جميع ما يملك حتى هد البيت الذي سكنه ، ولم يبق في يده غير راتبه الشهري
الصغير ، بل لم يبق في يده شيء حتى راتبه ؛ لأنه لا يملكه إلا ساعة من نهار ،
ثم هو بعد ذلك ملك للدائنين ، أو عنيمة للمقامرين !
« هذا ما صنعت يد الدهر به ، أما ما صنعت بي وولادي ، فقد مر على
آخر حيلة بعثها من خلأى : عام كامل ، وها هي حوانيت المرايين والمسترهنين
ملاى بملابسى ، وأدوات بيتى وأثاثه ، ولو لا رجل من ذوي قرباى رقيق الحال^(٤)

(١) قصف الرجل : أقام في أكل وشرب ولمو .

(٢) يتعادوا : تباروا في القلي ، أى الجري .

(٣) الأبياء : جمع بيو ، وهو المكان
الشخص لا يستبال الصوف .

(٤) رقة الحال كتابة عن الفقر .

يعود على من حين إلى حين بالتر القيس مما يستل من أشداق عياله ، هلك
وهلك أولادى جوعاً .
« فلعلك تستطيع يا سيدى أن تكون عوناً لى على هذا الرجل المسكين ،
تتقده من شغافه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأى الصالح ، وأحسب أنك تقدر
منه — للمنزلة التى تنزلها من نفسه — على ما عجز عنه الناس جميعاً ، فإن
فعلت أحسنت إليه وإلياً إحساناً لا ننسى يدك فيه حتى الموت .
ثم حينى ومصت لسيدها ، سألت اعلام عن الساعة التى أستطيع أن
أرى أباه فيها في المنزل ، فقال : إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان ،
فانصرفت لشأنى ، وقد أصمرت بين جنبى لوعة ما زالت تقيمنى وتعدنى
وتلذذ عن عيني سنة الكرى حتى انقضى الليل ، وما كاد يقضى .
ثم عدت في صباح اليوم الثانى ؛ لأرى ذلك الصديق القديم الذى كنت
بالأمس أسعد الناس به ، ولا أعلم ما مصير أمرى معه بعد ذلك ، وفي نفسى
من القلق والاضطراب ما يكون في نفس الداهب إلى ميدان سباق قد خاطر فيه
بجميع ما يملك ؛ فهو لا يعلم أيكون بعد ساعة أسعد الناس أم أشقاها .
الآن عرفت أن الوجوه مرايا^(١) النفوس تضيئ بضائها وتظلم بظلامها ؛
فقد فارقت الرجل منذ سبع سنوات فأستسى الأيام صورته ، ولم يبق في
ذاكرتى منها إلا ذلك الصياء اللامع ، صياء العصيلة والشرف الذى كان يتلأل
فيها تلو نور الشمس في صمحنها ، فلما رأيته الآن ، ولم أر أمام عيسى تلك
العبالة البيضاء التى كنت أعرفها ، خيل لى أنى أرى صورة غير الصورة
الماضية ، ورجلاً غير الذى كنت أعرفه من قبل .

(١) المرايا : جمع مرآة .

لم أر أمانى ذلك الفتى الجميل الوصاح ، الذى كان كل منبت شعرة فى وجهه فمًا ضاحكًا تموج فيه ابتسامة لامعة ؛ بل رأيت مكانه رجلًا شقيًا منكوبًا ، قد لبس الهرم قبل أوانه ، وأوقى على الستين قبل أن يسلم على اثلاثين ، فاسترعى حاجباه وثقلت أحفاه ، وجمدت نظراته ، وتمهل عارضاه ، وتجعد جبينه ، واستشرف^(١) عاتقه ، وهوى رأسه بينهما هويه بين عاتقى الأحذب ، فكان أول ما قلت له :

« لقد تغير فيك كل شيء يا صديقى حتى صورتك ! »

وكأنما ألم بما فى نفسى ، وعرف أنى قد علمت من أمره كل شيء ، فأطرق برأسه إطراق من يرى أن باطن الأرض خير له من ظهرها ، ولم يقل شيئًا ، فدنوت منه حتى وضعت يدي على عاتقه ، وقلت له : « والله ما أدرى ماذا أقول لك . أعظك ، وقد كنت واعظى بالأمس ، ونجم هداى الذى أستشير به فى ظلمات حياتى ؟ أم أرشدك إلى ما أوجب الله عليك فى نفسك ، وفى أهلِكَ ؟ ولا أعرف شيئًا أنت تجهله ، ولا تصل يدي إلى عبرة تقصر يدك عن بيئها ، أم أسترحك لأطفالك الضعفاء وزوجتك البائسة المسكينة التى لا عضد لها فى الحياة ، ولا معين سواك ؟ وأنت صاحب القلب الرحيم الذى طالما خفق بالبعداء ، فأحرى أن يخفق رحمة بالأقرباء .

« إن هذه الحياة التى تحياها يا سيدى ، إنما يلجأ إليها الهُمَلُ^(٢) لعاطلون الذين لا يصلحون لعمل من الأعمال ؛ ليتواروا فيها عن أعين الناس حياءً وخجلاً ، حتى يأتيهم الموت فينتقمهم من عارهم وشقائهم ، وما أنت بواحد

(١) استشرف : ارتفع . (٢) الهُمَلُ : التهنُّل التروك بلا رعاية .

مهم .

« إنك تمشى يا سيدى فى طريق القبر ، وما أنت بماقم على الدنيا ولا محترم^(١) بها ، فما رغبتك فى الخروج منها خروج اليائس المسحر ؟ عذرتك لو أن ما رحت فى حياتك النائية يقوم لك مقام ما حسرت من حياتك الأولى ، ولكلك تعلم أنك كنت غنيًا فأصبحت فقيرًا ، وصحيحًا فأصبحت سقيمًا ، وشريفًا فأصبحت وضيعًا ، فإن كنت ترى بعد ذلك أنك سعيد ، فقد غفلت رقعة الأرض من الأشقياء .

« إن كل ما يعيبك من حياتك هذه أن تطلب فيها الموت ؛ فاطلبه فى جُرعة سم تشرها دفعة واحدة ؛ فذلك خير لك من هذا الموت لمقطع الذى يكثر فيه عدايك وألمك ، وتعظم فيه آثامك وجرائمك ، وما يعاقبك الله على الأحرى بأكثر مما يعاقبك على الأولى .

« حسبا يا صديقى من الشقاء فى هذه الحياة ما يأتيها به القدر . فلا تصم إليه شقاء جديدًا حله بأفمسا لأفمسا ! فهات يدك وعاهدنى على أن يكون فى مد اليوم كما كنتى بالأمس ، فقد كما سعداء قبل أن يفترق ، ثم اترقنا فشفينا ، وها نحن أولاء قد التقينا ؛ فلنعش فى ظلال العذيلة والشرف سعداء كما كنا .

ثم مددت يدي إليه ، فرأى أنه لم يحرك يده ؛ فقلت له : « مالك لا تمد يدك إلى ؟ »

فاستعبر باكيا وقال : « لأننى لا أحب أن أكون كاذبًا ولا حائثًا . قلت : « وما يمنعك من الوفاء ؟ »

(١) نكرم الأمر : مبهته وضجر منه .

قال : « يمنعني منه أننى رجل شقي ، لا حظ لي في سعادة السعداء . »
قلت : « قد استطعت أن تكون شقياً ، فلم لا تستطيع أن تكون سعيداً ؟ »

قال : « لأن السعادة سماء والشقاء أرض ، والنزول إلى الأرض أسهل من الصعود إلى السماء ، وقد زلت قدمي عن حافة الهوة فلا نلذة لي على الاستمساك حتى أبلغ قرارتها ، وشربت أول جرعة من جرعات الحياة المريرة ، فلا بد لي أن أشرها حتى نملأها ، ولا شيء من الأشياء يستطيع أن يقف في سبيل إلا شيء واحد فقط ، هو أن لا أكون قد شربت لكأس الأولى قبل اليوم ، ومادمت قد فعلت فلا حيلة لي فيما قضى الله . »
قلت : « ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من

الناجين . »

قال : « إن العزيمة أثر من آثار الإرادة ، وقد أصبحت رجلاً مغلوباً على أمرى ، لا إرادة لي ولا اختيار ، فدعى يا صديقى والقضاء يصع لي ما يشاء ، وابلت صديقك القديم منذ اليوم ، إن كنت لا ترى بساً في البكاء على الساقطين المدنيين ! »

ثم انمجر باكياً بصوت عال وتركى مكانى دون أن يحسى بكلمة ، وخرج هائماً على وجهه لا أعلم أين ذهب ، فاصرفت لشئ وبين جيبى من الهم ولكمد ما الله به عليم .

لم يستطع رئيس الديوان أن يحمل يديه بالأمر زمناً طويلاً ، فأقضاه عن مجلسه استقلالاً له ، ثم عرله عن وظيفته استكازاً العصب ، ولم ندرف عيه دعة واحدة على منظر صريعه لساقط بين يديه ، ولم يستطع مالك البيت الحديد أن يميل فيه ، فالتفت القديم أكثر من بضعة شهور ثم طرده منه ، فجاء هو وروحه

وولده إلى غرفة حقيرة في بيت قديم في زقاق مهجور ، فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهباً إلى الحانة أو عائداً منها ، فإن رأيته ذاهباً زويت وجهي عنه ، أو عائداً دنوت منه فمسحت عن وجهه ما لصق به من التراب أو عن جبينه ما سال منه من الدم ، ثم قدته إلى بيته .

وهكذا . ما زالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله ، حتى أصبح من يراه ظلاً من الظلال المتقلبة ، أو حلمًا من الأحلام السارية ، يمشى في طريقه مشية الداهل المشدود ، لا يكاد يشعر بشيء مما حوله ، ولا ينقى ما يعترض سبيله حتى يدانيه ، ويقف حيناً بعد حين فيدور بعينه حول نفسه ، كأنما يفتش عن شيء أضاعه وليس في يده شيء يضيع ، أو يقلب نظره في أثوابه ، وما في أثوابه غير الرقاق والخرق ! وينظر إلى كل وجه يقابله نظرة شرراء كأنما يستقبل عدواً بغيصاً وليس له عدو ولا صديق . وربما تعلق بعض الصبيان بعائنه فدفعهم عنه بيده دفعاً ليناً غير آبه ولا محتفل ، كما يدفع السائم المستغرق عن عائنه يد موقظه ، حتى إذا خلا جوفه من الخمر وهدأت سؤرتها في رأسه ، انحدر إلى الحان فلا يزال يشرب ويتزايد حتى يعود إلى ما كان عليه .

ولم يزل هذا شأنه حتى حدثت منذ بضعة شهور الحادثة الآتية : عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلاً إلى القوت ، وأبكاه أن ترى ولدها وابنتها باكين بين يديها ، تنطق دموعهما بما يصمت عنه لسانهما ، فلم تر لها بلداً من أن تترك تلك السبيل التي يركبها كل مضطر عديم ، فأرسلتهما خادمين في بعض البيوت يقتاتان فيها ويقيتانها . فكانت لا تراهما إلا قليلاً ولا ترى زوجها إلا في الليلة التي تغفل فيها عنه عيون الشرطة ، وقلما تغفل عنه ، فأصبحت وحيدة في غرفتها لا مؤنس لها ولا معين إلا جارة عجوز ، تختلف إليها من حين

فأعانيها الله على أمرها فوضعت - ثم مرضت بعد ذلك بحصى الكلى مرضاً شديداً ، فلم تجد طبيباً يصدق عليها بعلاجها ؛ لأن البلد الذى لا يستحي أطاؤه أن يطالبوا أهل المريض بعد موته بأجرة علاجهم الذى قتله ، لا يمكن أن يوجد فيها طبيب محسن أو متصدق ، فصار الموت يذنو بها ويذار ويذنا حتى أدر كبر رحمة الله ، فوافاها أهلها في ساعة لا يوجد فيها بحاسها غير طفلها الصغيرة عالقة بذيها .

في هذه الساعة دخل الرجل ثائراً مهتماً يطلب الشراب ويعتش عن روحه لئلا يله منه ما يريد ، فدار معيه في أعاء العروة حتى رآها عدة على حصيرها ، ورأى ابنتها تنكي بحاسها ، فطها مائة قدسا بها ودفع الطعنة بعينها عنها ، وأخذ يحركها تحريكاً شديداً فلم يشعر بحركة ، فزابه الأمر وأحس برعدة تمشي في أعصائه حتى أصابت قلبه ، فبدأ صوابه يعود إليه شيئاً فشيئاً ، فأكب عليها يحرق في وجهها تحديقاً شديداً ، ويرحف حوها رويها رويها حتى رأى شبح الموت يحرق إليه من عيسها الشاحصتين الحامدين ، فراحح حوقاً وذعراً فوطئ في تراجمه صدر ابنته فأنث أنه مؤثك لم تحرك بهما حركة واحدة ، فصرخ صرخة شديدة وقال : « واشقاهاه ! » واشقاهاه !

وأخرج هائماً على وجهه يمشو في الطريق ويضرب رأسه بالأسند والطران ، ويدفع كل ما يجد في طريقه من إنسان أو حيوان ويصيح : « ابنتي أزوحتي املسوا إلي ! أدركوني ! حتى أعيأ مسقط على الأرض ، وأخذ يمحس التراب برجليه ويش أنيس اللبيح ، والاس من حوله آسفون عليه ، لا لاسم يعرفونه بل لأنهم قرأوا في وجهه آيات شقاه .

إلى حين ، فإذا فارقها جارتها وخلت بنفسها ، ذكرت تلك الأيام السعيدة التي كانت تغلب بها في أعطاف العيش الساع والمعمة السابعة ، بين زوج كريم وأولاد كاللوكب الزهر حسناً وبهاء . ثم تذكر كيف أصبح السيد مشرداً ، والمخدوم خادماً ، والمميز الكريم ذليلاً مهيناً ، وكيف انتثر ذلك المعقد اللؤلؤى المنظوم الذي كان حلية بديعة في جيد الدهر ، ثم استحال بعد انتشاره إلى حصيات منبوبات على سطح المراء ، وتلوثها السعال وتلوسها الجوارق والأقدام ، فنيكي بكاء الزواله في إثر قوم ظاعنين حتى تحلف نفسها أو يكاد !

على أنها ما أضمرت قط في قلبها حقاً لذلك الإنسان الذي كان سنيا في شفتها وشقاء ولديها ، ولا حدثتها نفسها يوماً من الأيام عما صبت أو محرانه ، لأنها امرأة شريفة ، والراة الشريفة لا تتغربز وجهها المكروب . بل كانت تنظر إليه نظرة الأم الجنون إلى طفلها الصغير ، وترحمه وتعطف عليه ، وتسهر حماره إن كان مريضاً ، وتأسو جراحه إن عاد جريئاً . وربما طرده الخمار في بعض الليالي من حانته ، حيناً لا يجد منه ثمن الشراب ، فيعود إلى بيته ثائراً مهتماً يطلب الشراب طلاً شديداً ، فلا تجد بداً من أن تعطيه نفقة طعامها أو تتباخ له من الخمر ما يسكن به نفسه ، ورحمة وإفاء على تلك النفقة الباقية من عقله .

وكان الدهر لم يكفه ما وضع على عاتقها من الانتقال ، حتى أضاف إليها ثقلًا جديدًا ، فقد شعرت في يوم من أيامها بنسمة تحرك في أحشائها ، فعلمت أنها حامل ، وأنها ستأق إلى دار الشقاء بشقي جديد ، فتهافت صارخة : « رحلتك اللهم ، فقد امتلأت الكأس حتى ما تسع قطرة واحدة ! » وما زالت تكابد من آلام الحمل ما يجب أن تكابده امرأة مريضة منكوبة ، حتى جاءت ساعة وضها ، فلم يحضرها أحد إلا جارتها المحوزة ،

فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سبباً في ضياع ما بقي من عقله .
وما هي إلا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيداً مغلولاً في قاعة من قاعات اليمارستان ، قوا رحته له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريخة ولأولاده المشردين البؤساء !

الجزء

مترجمة

جلست على ضفة البحيرة تملأ جرّتها ، وكان الماء ساكناً هادئاً كأنما قد امتدت فوق سطحه طبقة لامعة من الجليد ؛ فعز عليها أن تكسر يدها هذه المرأة الباعمة الصقيلة ، ولا شيء أحب إلى المرأة من المرأة ؛ فطلت تقلب نظرها فيها ، فلمحت في صفحتها وجهاً أبيض رائقاً ينظر إليها نظراً عذباً فاتراً ، فابتسمت له ، فابتسم لها ، فعلمت أنه الوجه الذي احسن به عطيها القروي الجميل .

أست بهذا المظر ساعة ، ثم راعها أن رأت بجانب خيالها في الماء خيالاً آخر فتبته فإدا به خيال رجل قدعرت ، ولكنها لم تلتفت وراعا ومدت يدها إلى الماء فملأت جرّتها ، ثم نهضت لتحملها ، فتقدم إليها ذلك الواقف بجانبها وقال لها : « هل تأذنين لي يا سيدتي أن أعينك على حمل جرّتك ؟ » فالتفت فإذا هي حضري غريب حسن الصورة والبزة^(١) لا تعرفه ، ولا تعرف أن هذه الأرض مما تنبت مثله ، فراها أمره واتقد وجهها حياء وخجلاً ، ولم تقل شيئاً ، واستقلت^(٢) جرّتها ومضت في سبيلها .

نشأت موزان وابن عمها جلبرت في بيت واحد كما تنشأ الرهتران المتعاققان في مغرس واحد ، فرضعت معه وليدة ، ولعبت معه طفلة ، وأحبه

(١) البزة : الهيئة . (٢) استقلت الشيء : خنلته وززنته .

فتاة . ومرت بهما في جميع تلك الأدوار معادة لم يستمدها من القصور والبساتين والأرائك ولأسرة ، والحياض والمركبات ، والأكواب والدنان ، والمزاهر والعيدان ، والذهب اللامع ، واللؤلؤ الساطع ، والأثواب المطرزة ، والفلائل المرصعة ، لأههما كانا قرويين فقيرين .

بل استمدها من مطلع الشمس ومغربها ، وإقبال الليل وإدباره ، وتلاؤل السماء بسجوها الرائحة والأرض بأعشابها الناضرة ، ومن لوفعات الطوال فوق الصخور البارزة على ضفاف البحيرة الهادئة ، والجلسات الحلوة الجميلة ، على الأعشاب الناعمة ، تحت ظلال الأشجار الوارفة ، ومن سماع أناشيد الحياة ، وأغاني الرعاة ، وضوضاء السائمة في غنوها ورواحها ، وبكاء التواصي^(١) في مسائها وصباحها ، ومن الحب العنابر الشريف الذي يشرق على القلوب الحزينة فيسعددها ، والأفئدة المطلمة فيبرها ، والأجنحة الكسرة فيبرشها ، والذي هو المراء الوحيد عن كل فائت في هذه الحياة ، والسلى عن كل مفقود ، ولم يزل هذا شأنها حتى كان يوم البحيرة .

لا تعرف المرأة لها وجوداً إلا في عيون الرجال وقلوبهم ، فلو حلت رفعة الأرض من وجوه الساطرين ، أو أقفرت حنايا الضلوع من خوافق القلوب ، لأصبح الوجود والعدم في نظرها سواء . ولو أن وراءها ألف عين تنظر إليها ثم لحت في كوكب من كواكب السماء نظرة حب ، أو سمعت في زاوية من زوايا الأرض أنه وجد ، لأعجبها ذلك الغرام الجديد وملأ قلبها غبطة وسروراً . فقد عادت الفتاة إلى بيتها طيبة النفس قريرة العين مرهرة مختالة ، لا لأن حياً جديداً حل في قلبها محل الحب القديم ، ولا لأن نفسها حدثتها أن تصل حياتها

(١) التواصي : جمع ناصورة ، وهي : السفينة ، أي الدولاب المعد لاستخراج الماء من البحر .

بحياة أحد غير خطيبها ، بل لأنها وجدت في طريقها برهاناً جديداً على جمالها فأعجبها ، فكانت لا تزال تختلف بعد ذلك بمرتها إلى البحيرة غير خائفة ولا مرتابة ، فرى ذلك السيد الحضري في غنوها أو رواحها يحميها أو يتسم لها ، أو يسألها عن طريق ، أو يستسئها شربة ماء ، أو يقدم إليها زهرة حميلة ، أو يلقي في أذنها كلمة عذبة ، حتى استطاع في يوم من الأيام أن يجلس بجانبها لحظة قصيرة في ظل صحرة منفردة ، فكانت هذه اللحظة آخر عهدهما بحياتها القديمة ، وأول عهدهما بحياتها الجديدة .

هبط المركيز جوستاف روستان هذه الأرض منذ أيام لتفقد مزارعه فيها ، وكان لا يزال يختلف إليها من حين إلى حين ، فيقضي في قصره الجميل الذي بناه فيها على بعد ساعتين من البحيرة بضعة أيام ، ثم يعود إلى بلدته « نيس » . حتى رأى هذه المرة هذه الفتاة في بعض غنواته إلى ضفاف البحيرة فاستلهاه حسنها ، وما زال يفيض على قلبها من حبه ، وعلى أذنها من سحره ، وعلى جيدها ومعصمها من لآلئه وجواهره ، ويصور لها جمال الحياة الحضرية في أجمل صورها وأبهائها ، ويمنحها الأمان الكبار في حاضرها ومستقبلها ، حتى أذعنّت واستقادت وخضعت للتي تخضع لها كل أنثى نامت عنها عين راعيها ، وأسلمها حظها إلى أنياب الذئاب .

استيقظ الفتى جليوت في الساعة التي يستيقظ فيها من صباح كل يوم فعمد إلى بقرته فحل عقلاها ، ثم هتف باسم سوزان يدعوها إلى الذهاب معه إلى المرعى فلم تجبه ، فصعد إلى غرفتها في سطلح المنزل ليوقظها فلم يجدها ، فسأل عنها أمه فلم تعلم من أمرها أكثر مما يعلم ، فظن أنها خرجت لقضاء بعض الشؤون ، ثم تعود ، فلبث ينتظرها وقتاً طويلاً فلم تعد .

فرا به الأمر وأعاد البقرة إلى مَعتَلَفها ، وخرج يفتش عنها في كل مكان ،

يسائل عنها الناس جميعًا غاديتهم ورائحهم ، فلم يجد من يبدله عليها حتى أظنه الليل ، فعاد حزينًا مكتئبًا لا يرى أن أحدًا على وجه الأرض أعظم لوعة منه ولا أشقى ، فرأى أمه قابضة في كسر البيت مطرقة برأسها تعلى التراب يعود في يدها ، فدنأ منها ، فرفعت رأسها إليه وقالت له :

« أين كنت يا جليوت ؟ »

قال : « فتشت عن سوران في كل مكان فلم أجدها . »
فألقت عليه نظرة مملوءة حزنًا ودموعًا ، وقالت : « خير لك يا بني ألا

تنتظرها بعد اليوم . »

فانتفض انتفاضة شديدة ، وقال : « لماذا ؟ »

قالت : « قد دخلت على الساعة جارتنا فلانة ، فحدثني أنها ما رأت تراها منذ ليالي تخلف إلى لبحيرة للاجتماع على صفاها بمنى حصري عريب عن هذه المدة ، أحسبه المركيز « جوستاف روستان » صاحب هذه مرارح لتي تليها والقصر لأحر الذي يليها ، وقالت لي إنها رأتها ليلة أمس بعد منتصف الليل راكبة ورائه على فرس أشهب يعدوها في طريق لقصر الأحمر ، ولا بد أنها فرت معه . »

فصرخ جليوت صرخة جادت لها نفسه أو كادت ، وخر في مكانه صعبًا . فلم تزل أمه جائئة بجانبه الليل كله ، تكي عليه مرة ، وتمسح جبينه بإحدى أحرى ، حتى استفاق في مصبع البحر ، فظفر حوله نظرة حائرة ، فرأى أمه مكبة على وجهها تكي وتتحب ، فذكر كل ذلك فاطرق هيبة ، ثم رفع رأسه ووضع يده على عاتقها ، وسألها : « ما بك أوذي يا أماه ؟ »

قالت : « أهيك عليك يا بني وعليها . »

قال : « إن كنت باكية فابك على غيري ، أما أنت فلست بحزين ، ولا بأك ،

فقد كنت أحببت هذه الفتاة لأنها كانت تحبني ، وقد استحالت قلبي الآن إلى صخرة عاتية لا ينال منها شيء ، فلا رجعة لي إليها بعد اليوم ! » ثم مسح عن خده آخر دمة كانت تسحدر فيه ، وقام إلى بقرته فأخذ بزمائها ومضى بها إلى المزرعة وحده .

لقد كذبت المسكين نفسه ، فإنه ما سلا سوزان ولا هدأت عن قلبه لوعة حبها ، ولكنها الغضبة التي يعرضها المحب المهجور ، تخيل إليه أنه قد رفض يده من المحب أشد ما يكون به عالقًا .

فإنه ما وصل إلى المرعة وأرسل سائمته في مرعاها ، حتى رأى كوكب الشمس يتناهى من مطلعه قليلاً قليلاً ، ويرسل أشعته الباقوتية الحمراء على هذه الكائنات ، فخير ظلامها ، وتجلو صفحتها ، وتترقق ما بين خضرائها وغبرائها ، فأعجبه منظر هذه الطبيعة المتألقة بين يدي هذا الكوكب المنير . ودار ينظره في الفضاء من مشرقه إلى مغربه ، فلمح في الأفق الغربي بارقًا يخطف البصر بالألوان ، فغفل إليه أن المغرب قد أطلع في أفقه شمسًا كذلك التي أطلعها المشرق حتى تبيته ، فإذا هو لوح كبير من الزجاج أصفر مستدير تعابته أشعة الشمس فيما تعابث من الكائنات فيلتمع التمتعًا شديدًا ، فاسترد بصره إليه سريعًا ووضع يده على يسرى أضالعه ، كأنما يحول بين قلبه وبين الفرار ، لأنه علم أن ذلك اللوح الزجاجي الأصفر إنما يلوح في برج من أبراج القصر الأحمر .

هنا علم أن نفسه قد كذبت فيما حدثته ، وأن تلك البارقة التي كانت تصبى ما بين جنبه من الحب قد استحالت إلى جنوة نار مشتعلة تقضم قواده قضماً ، وتمشي في نفسه مشى الموت في الحياة ، فأطلق لعبوته سيلها . وأنشأ يئن أنينًا يحزنًا ترده الرياح في جوها ، والأمواج في بحرها ، والأعشاب في

مفارسها ، والسائمة في مرابضها ، حتى سمع أصوات الرعاة وضوضاء السائمة ، فكفكف عبراته ، وأسلم رأسه إلى ركبته وذهب مع هموم وأحزانه إلى حيث شاء الله أن تذهب .

هكذا لم ينفع المسكين بنفسه بعد اليوم ، فقد ذهب من الحزن إلى أبعد مداهيه ، حتى نال منه ما لم يبل كمر العداة ومر العشى ، فأصبح من يراه في طريقه يرى رجلاً يائساً منكوباً مشرد العقل ، مشتت القلب ، مذهوئاً به كل مذهب ، يهيم على وجهه آفاء الليل وأطراف النهار بين الغابات والخرجات ، وفوق صفاف الأنهار وتحت مشارف الجبال ، بأنس بالوحش أسس العشير بعشيره ويغفر من الناس إن دنوا منه فرار الإنسان من الوحش ، ويرد الماهل مع الطيباء واليعاقبة ^(١) ، ثم يصدر إذا صدرت معها .

وربما تراسى به السير أحياناً إلى أقبية القصر الأحمر من حيث لا يشعر ، فإذا رأى أبراجه بين يديه دعر دعرًا شديدًا وصاح صيحة عظيمة ، وانكعاً راجعاً إلى قريته لا يلوى على شيء ، وكثيراً ما قضت أمه النهار كله حاملة على يدها الطعام تنفث عنه في كل مكان ، حتى تراه ملقى بين الأحجار ، على صفة نهر دأوى في سفح جبل ، فضع الطعام بين يديه من حيث لا يشعر بمكانها ، ثم ترفع يدها إلى السماء ضارعة متخشعة ، تسأل الله بدموعها وزفراتها أن يرد إليها وحيدها ، ثم تعود أحراجها !

مضى الليل إلا أقله ، وسوارن جالسة إلى نافذة قصرها المشرفة على النهر ، تلتفت إلى سرير ابتها مرة وتقلب وجهها في السماء أخرى ، وكان القصر في ليلة ثيمة ، فطلت تاجيه وتقول :

(١) اليعاقبة : جمع يعقوب ، وهو الطغي بكون للرب .

أيتها القمر الساري ، في كبد السماء ، ها أنذا أراك في ليلة تملك وحدى للكرة الرابعة والعشرين ، فهل يعود إليّ خطيبي ؟ جوستاف ، فيطر إليك معى كما يفعل من قبل ؟

لقد كنت لي أيتها الكوكب الثور نعم المعين في ليالي المرحشة على همومي وأحزاني ، فهل تستطيع أن تحدثني عن ؟ جوستاف ، أين مكانه ومتى يعود ؟ وهل نلتقي قريباً فتم بذلك يدك عددي ؟

حدثني عنه ... هل يدكرني كما أذكره ؟ وهل يحفظ عهدي كما أحفظ عهده ؟ وهل يجلس إليك حيناً فيسألك عني كما أسألك عنه ؟ فإن فعل ، قتل له : إن ابنته جميلة جداً جمال الابتسامة الحائرة في فم الحساء ، ويضاء بياض القفطرة الصافية في الرقبة الناصعة تحت الأشعة الساطعة ، وقل له : إنها لا تهتم باسم غير اسمه ، ولا يتسم لرسم غير رسمه ، وإياه إن رآها أعتت رؤيتها عن المرأة الحلوة ، لأنه يرى صورتها في وجهها كما تشابه الدينان المصبوتان في قالب واحد .

ولم ترل تاجي القمر يمثل هذا السحاء حتى رآته يحدر إلى معربه ، فودعه وداغاً جحلاً ، وقالت : « إلى الغد يا صديقي العزيز . » ثم قامت إلى سرير ابتها ، فبحث عليها يرفق وقبّلها في جبينها قبلة المساء ، ودهبت إلى مضجعها ، وما هو إلا أن عجمت بحفنها السسة الأولى من النوم ، حتى أسلمتها أحلامها إلى أمانيها وآمالها ، فرأت كأن وجوستاف قد عاد من سفره فاستقبلته هي وابنتها على باب القصر ، مرل من مركته وضمهما متاً إلى صدره ضمّاً شديداً ، وظل يقبلهما ويكي فرحاً ومسوراً .

فإنها المستغرقة في حلمها هذا ، إذ شعرت بيد تحركها فأنهت ، فإذا صدر النهار قد علا ، وإذا خادمتها واقفة على رأسها ضاحكة .

« بشارك يا سيدتي فقد حضر سيدي . »
فاستظيرت فرحاً وسروراً ، وقالت : « أحمداك اللهم فقد صدقت
أحلامي . » وأسرعت إلى عرفة ملابسها فمدت أثوابها ، ثم دخلت عليه في
عرفته باسمته متهلة تحمل ابتها على يدها ، فرأته واقفاً في وسط العرفة منكثاً على
كرسي بين يديه ، فهرعت إليه . ولكنها ما دلت منه ، حتى تراجعت حائرة
مدهوشة ؛ لأنها رأت أمامها رجلاً لا تعرفه ولا عهد لها به من قبل ، لا بل هو
بعينه ، ولكنها رأت وجهها صامتاً متحجراً لا تلمع فيه بارقة بنسام ، ولا تجري
فيه نظرة بشاشة فأكرته . إلا أنها تماسكت قليلاً ومدت إليه يدها تحييه ، فمد
إليها يده بشاقل وفور ، كأنه يقلبها من مكب قفلاً ، ولم يلق على وجه
الطعمة — وكانت تبسم إليه وتمد نحوه ذراعها — نظرة واحدة ، وكانت أول
كلمة قالها لها :

« أهاقية أنت في القصر حتى اليوم ؟ »
فازدادت دهشة وحيرة ، ولم تفهم ماذا يريد ، وقالت له :
« وأين كنت تريد أن ترائي يا سيدي ؟ »
قال : « في هذا القصر ، كما تركتك ، ولكني أظن أنك لا تستطيعين البقاء
فيه بعد اليوم . »
قالت : « لماذا ؟ »
قال : « لأن زوجتي قادمة إليه اليوم ، وربما كانت لا تحب أن ترى فيه من
يزعجه وجودها . »
هناك شعرت أن جميع ما كان يبعث في عروقها من الدم قد ترجع كله
دفعاً واحدة إلى قلبها ، فأصبح وحده الواجب^(١) الخفاق من دون أعضائها

(١) وتجب القلب : صحن .

وأوصالها جميعاً . ولكن المصيبة إذا عظمت جلت عن البكاء والأنين ، فلم
تصيح ولم تضطرب ، بل نظرت إليه نظرة طويلة هادئة ، ثم التفتت إلى ابتها
وقالت له :

« وما ترى في ابتك هذه ؟ »

قال : « ليس لي ابنة أينما السيدة ولا ولدي ، لأنني لم أتزوج إلا منذ ثلاثة
أيام ! فحدي ابتك معك ، وعيشي معها حيث تشائين ، وقد تركت لك
هذا الكيس على المنضدة ، فخذيه واستعيني به على عيشك ، وتركها
ومضى . »

لم تنق على المصيدة نظرة واحدة ، ومشت تتحامل على نفسها حتى
وصلت إلى عرفتها ، وهناك انفجرت باكياً ، وقالت : « واسوءناه ! إنه
يعطيني ثمن عرضي . » وسقطت مغشياً عليها .

فدم تستق حتى أظلمها الليل ، ففتحت عينها فإذا ابتها تبكي بين ذراعي
الخدمة ، وإذا الخادمة تبكي لباكائها ، فضمتها إلى صدرها ساعة ، ثم قامت
إلى عرفة ملابسها وأحدثت تعش عن أثوابها القروية التي دخلت بها هذا القصر
منذ ثلاثة أعوام ، وكانت تخفيها عن أعين الناس حياةً وخجلاً ، فخلعت
أثوابها ولبسته ، ولم تبق في معصمها ولا في جبهتها لؤلؤة ولا ماسة إلا ألقت
بها تحت قدميها . واحتملت طفلتها وخرجت تحت ستار الليل تترج^(١) في
مشيتها كأنما تمشي على رملة ميثاء^(٢) .

وما جاوزت عتبة الباب ووصلت إلى الموضع الذي كانت واقفة فيه في
حلمها هي وابتها منذ ساعات تنتظر خطيبها ، حتى هت على البعد مركبة

(١) تزلج : تمايل من السكر وغوهر . (٢) الميثاء : اللبنة .

فخمة مقبلة على القصر تحمل الركيز وامرأة بجانبه ! فأغمضت عينيهما وتسللت تحت جدار القصر ، ومضت في سبيلها .

لا يعلم إلا الله ما كانت تحمل هذه الفتاة المسكينة بين جنبيهما في تلك الساعة من هموم وأحزان ، فقد خرجت مطرودة من القصر التي كانت تظن منذ ساعات أنها صاحبته ، وتولى طردها من كانت تزعم في نفسها أنها أحب الناس إليه ، وآثرهم عنده ، واستحالت في ساعة واحدة من فتاة شريفة ذات خطيب شريف إلى امرأة عاهرة ذات ولد مريب ، وأصبح مستحيلًا عليها أن تعود إلى بيتها القديم بهارها ، فخرى وجه ذينك الشخصين الذين أحسنا إليها كثيرًا وأحبابها حبًا جمًّا فأساءت إليهما وغدرت بهما ، فقد سُدَّتْ دونها السبل وأظلم ما بينها وبين العالم بأجمعه فما من رحمة لها في الأرض ، ولا في السماء ! ذلك ما كانت تحدث نفسها به ، وهي سائرة تحت سوار لقصر سير الناهل المشدود لا تعرف لها مذهبًا ولا مضطربًا ، حتى رأت رأس ابنتها يميل به الكرى ، فمشت إلى ربوة عالية على ضفة النهر الجاري على مقربة من القصر ، فأضجعتها فوق عشبها ، وأسبلت عليها رداءها ، وجلست بجانبها تفكر في مصيرها .

فإنها لجالسة مجلسها هذا ، وقد سكن الليل وسكن كل شيء فيه إلا ضوء القمر المنبعث في أجواز الفضاء ، ونسمات الهواء المترقرة على صفحات الماء ، إذ شعرت كأنها تسمع بالقرب منها هاتفاً يهتف باسمها بصوت ضعيف ، فالتفت حيث سمعت الصوت فإذا شبح أسود ممتد بين صخرتين على ضفة النهر ، كأنه إنسان نائم فارتاعت وفزعته ، ثم سمعت الصوت يتكرر بنغمة واحدة . فأهمها الأمر ونهضت من مكانها وأخذت تدنو من الشبح رويدًا رويدًا حتى دانت ، فإذا هو إنسان في زي المساكين مُستلق على ظهره

شاحص بصره إلى جدار القصر . فذهبت مظهرها حيث يذهب ، فإذا عبه عالقة بنافذة عرفتھا التي كانت تجلس إليها كل ليلة ، عجت لذلك كل المعجب ، وحقق قلبها حققًا متداركًا ورأته يصم إلى صدره هه بيضاء أشبه بالرقعة صمًا شديدًا ، فأكبت عليه لتتبيه ، وترى ما يصم إلى صدره ، فإذا الرقعة رسمها ، وإذا هو جلبرت ! يجود بسسه ، ويردد بصوت خافت متلععل كأنه أصوات المعذنين في أعماق القبور :

« الوداع يا سوزان ! الوداع يا سوزان ! »

فصهت كل شيء ، فصرحت صرخة عظمى ، دوى بها الفضاء وقالت :

« آه ! لقد قتلتك يا ابن عسى . »

ثم سقطت على يده تقبلها وتبلسها بدموعها ، وتقول : « ها أنذا يا جلبرت ! جائية تحت قدميك ، فارحمي واعفري ذنبي ، فقد أصبحت امرأة يائسة شقية ليس على وجه الأرض من هو أبق بالرحمة مني . »

وكأنما أحس بنغمة صوتها فارتعد قليلًا ، ثم مال بظهره نحوها حتى رآها ، فسقطت من جفنه دمة حارة على يدها كانت آخر عهده بالحياة ، وقضى : ولما دنا مني السياق (١) تعرضت

إلى ودوني من تعرضها شغل أنت وحياض الموت ييسى وسينها

وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل
جئت سوزان بجانب جثة جلبرت ساعة ، قصت فيها ما يجب عليها لابن عمها وعطيبها وعشيقتها الذي أحبه حبًّا لم يحبه أحد من قبله أحدًا حتى مات

(١) السياق : نزاع الروح .

حسرة عليها ، ثم استفاقت فذكرت ابتها ، وأنها تركتها على تلك
الربوة نائمة وحدها معادت إليها مسرعة ، وقد قررت في نفسها أمرا .
« لا أعرف أحدا من الناس أوصيه بك يا بيتي ؛ لأن أباك أنكرك ولأن
الرجل الوحيد الذي كان يحب في هذا العام ذهب لسيله ، ولكني أعلم أن
لهذا الكون إلها رحيمًا يعلم دخائل القلوب وسرائر النفوس ، ويرى لوعة
الحر في أفئدة المحزونين ولاعج الشقاء بين جوارح الأشقياء ، دنا أكل أمرك
إليه وأتركك بين يديه فهو أرحم بك من جميع الرحماء .
« لا أستطيع أن أعيش لك يا بيتي ، فإن أحدا من الناس لا يعتزلي الدن
الذي أدبته ، حتى الذي أعزاني به وشاركني فيه ؛ فأنا داهية إلى ذلك العالم
العلوي المملوء عدلا ورحمة ؛ لعل أجد فيه من يغفر لي ذنبي إن كنت بريئة ،
ويرحمني إن كنت مذنبه .

« لا أحب أن تكون حياتي يا بنة شؤما على حياتك ، ولأن بأحدك الناس
بذبي كلما وأوك بحاسي ، فأنا أتركك وحدك في هذا المكان لعل راحما من
الناس يمر بك فيعطيك عليك ، ويصمك إليه ، من حيث لا يعلم شيئا من
أمرك ، فتعيشين في بيته سعيدة هانئة ، لا تعرفين أباك فيخجلك مرآه ،
ولا أملك فتؤلك ذكراها .

« اللهم إن كنت تعلم أن هذه الطفلة صعيقة عاجزة تحتاج إلى من يرحمها
ويكفل أمرها ، وأنني قد أصبحت عاجزة عن البقاء بجانبها أرحاها وأحنو
عليها ، وأنها بريئة طاهرة لا بد لها في الذي أذنبه أبواها ، فارحمها وأسبل عليها
ستر معروفك وإحسانك ، وهني لها صدرا حنونا ، ومهنا ليئا ، وعيشا
رعيئا .

ثم بدأت تسرونها عن جسمها ، وتغطي بها جسم ابتها وقاية لها من برد

الليل ، حتى لم يبق على جسدها إلا قميص واحد ، تركته ليكون ستر العورتها
عند انتشارال جثتها ، ثم حنت على الطفلة برفق ، فالتفتا في جبينها لثمة أودعتها
كل ما في صدرها من حب ورحمة ورفق وحنان ، ثم هتفت قائلة :
« الوداع يا ماري . سنلتقي عما قليل يا جليبرت . المعصرة يا كاترين .
وألقت بنفسها في الماء .

قضى المركز الليلة الأولى من ليالي شهر المسمل مع عروسه في شرفة القصر
يسمران ويتاحيان ، ويذهبان بنظرهما حيث تذهب خضرة الأرض وتمتد
زرقة السماء وتطرده مياه النهر ، ويتقلبان بين سعادة حاضرة وأخرى مرجوة ،
ويرشغان من كل كأس من تلك الكؤوس رشمة نكثرا بما عدهما منها ، حتى
ثملا واستغرقا وأصبحا لا يشعران بشيء مما حولهما ، فلم يستيقظا حتى سمعا
دوى الريح في أبراج القصر ، وفي ذوائب الأشجار ؛ فعلمتا أنها الزوبعة فنهضا
من مكانهما ليذهبا إلى مضجعهما .

فإيهما لواقفان موقفهما هذا ، إذ لحت المركيزة في وجه المركز دهشة
واضطرابا ، ورأته يلتفت التفاتا شديدا كأنما يسمع لصوت غريب ، فسأته
ما باله . فلم يجبها ، وأطل من الشرفة على النهر ، فرأى كما رأته هي على نور
القمر ، طفلة واقعة على الضفة تصيح وتعمل ، وتشير بيدها نحو الماء ،
وتقول : « أماء ! أماء ! » فظنرا حيث تشير ، فإذا امرأة عارية إلا قليلا
تخبط ، في لجج الماء تحبط الغرق .

فترك المركز مكانه ونزل يعلو إلى النهر ، وهو يقول : « وا لهتاه إن
كانت هي . » وصاح بخدمه أن يتبعوه ففعلوا .

حتى بلغ موقف الطفلة فعرف أنها ابتها ، وأن الغريقة سوزان ، فأظلم
الفضاء في عينيه وأشار إلى أحد خدمه أن يعود بالطفلة إلى القصر ، وأمر الباقين

أن يسبحوا وراء الطريقة ، ثم سقط في مكانه وأهنا متبالكا ، وكان قد اجتمع على الضغنة خلق كثير من الفلاحين رجالاً ونساء ، فسبح بعضهم وراء المساكين ، ووقف الباقون حول المركز ينتظرون رحمة الله وإحسانه .

انتشر المساكين في كل مكان ، ومشت وراءهم عيون الناظرين وقلوبهم ، فقامت بينهم وبين الأمواج المتلاطمة معركة هائلة ، كانوا يملقون فيها مرة ويترجعون أخرى ، وكانوا إذا لاح لهم على البعد قميص العريفة أو شعرها ، عظم عددهم الأمل ، فاندفعوا وراءها مستسلمين مستقلين يمالئون حبال الأمواج المعرضة في طريقهم ، حتى إذا دوا من المكان الذي نجوها فيه لا يجدون أمامهم شيئاً ، ثم لا يلبث اللوح أن يكر عليهم ، فيدفعهم إلى الضغنة كما كانوا .

وما زالت الفترات بين ظهور الطريقة واختفائها تتسع شيئاً فشيئاً حتى غابت عن الأعين ولم تظهر ، فوهب السامعون وراءها ولجوا ساعة يرسبون ويطلقون ، ثم ظهروا على وجه الماء يحملوها على أيديهم ولا يعلم الناس أحيه أم ميتة ، وما زالوا يسبحون بها وأصوات الدعاء لها والكاء عليها ترون في الصمتين خردد رنينها آفاق السماء ، حتى وصلوا بها إلى الضغنة ، فالتقوها على الأرض فأقام هي ميتة .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت الضغنة مائتاً قائماً يركي فيه النساء على الشهيدة والرجال على الشهيد .

لم يهتج المركز بنفسه بعد هذا اليوم كما لم يهتج جلبرت بنفسه من قبل ، فقد مرصت أسته على أثر تلك الحادثة مرصاً شديداً ، فلم تلبث أن سقطت بأمرها بعد ثلاث ليال ، واستحال الطيب الذي كانت تغمسه له وزوجته إلى بعض واحترار فتهجرت وسافرت إلى نيس ، ولزعه خيال ذلك المنظر الذي رآه

من شرفة القصر ليلة الفرق لا يفارقه ليله وبناره . فكان كلما مشى في طريق ، توهم أن أمامه نهراً هائلاً تحيط سوران في لججه ، وتصيح صاري على صفته ، فيصرخ قائلاً : « لييك يا سوزان ! » ويهتف إلى الأمام كأنها يريد أن يلتقي بنفسه في النهر الذي توهمه ليسبحي الطريقة التي تجلبها ، فيأني عنه المطر كلما دنا منه حتى يمال منه التعب ، فيسقط حسيماً طريقاً .

وكان يتم على وجهه أحياناً حتى يصل إلى ضاحية قرية « لبي » فوري امرأة عسجراً مكئة على قبرتين بديها تكي وتنصب ، فيعلم أنها كاترين ، وأن العر قرق قلاذ ، فيتراجع خانماً مدعوراً ، ويصرخ قائلاً : « الرحمة الرحمة ! » الممر المفقو !

وكثيراً ما كان يراه نساء العلاجين سافطاني بعض الأماكن التي كن يرين فيها حلبرت ، فيقولن : « لقد انقسم الله للشهيد المسكين والشهيدة المظلومة » وكان مطر الماء يهيجه أكثر من كل منظر سواه ، فإذا رآه تثار وانمطرب وهاقت عليه يريد اقتحامه ، فو لا أن يتلاركه من يراه من المارة . ولم يزل هذا شأنه حتى رأى الناس جثته في صباح يوم من الأيام طافية على وجه النهر في المكان الذي غرقت فيه سوزان ، فطمسوا ألبها نهاية الجراء . مرت على هذه الحادثة أعوام طوال ، ولا يزال عجاثر قرية « لبي » القرى الخيطة بها يحفظونها حتى اليوم ويمكن كلما ذكرتها ، ويوريتها لسائرين حبيباتهم خيرة يعتبرن بها كلما طاف بين طائف من شروق الرجال .

تألفوا الشمس في دارتها ، وقد جلس على يمينه رجل يلبس مِسْحًا^(١) وعلى يساره آخر يلبس طِيلَسًا^(٢) ، فسألت عهما ، فَعَرَفْتَ أَنَّ الدى على يمينه كاهن الدير ، وَأَنَّ الدى على يساره قاصى المدينة ، ورأيتَه يَظُرُقُ ورقة بيضاء بين يديه ، فأَكَبْتُ عليها ساعة ثم رفع رأسه وقال : « لِيُوتَ بِالْمُجْرِمِينَ . »

ففتح باب السحر وكان على يسار العماء ، فتكشف عن مثل حلق الليث مطرًا وزئيرًا ، وخرج منه الأعوان يقنادون شيخًا هرمًا تكاد تسلمه^(٣) قوائمه ضعفًا ووهنًا ، فسأل الأمير :

« ما جرِمتَ ؟ »

فقال الكاهن : « إنه لص دخل الدير ، فسرق منه غِرَازَةً^(٤) من عرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء المساكين . »

فصيح الناس ضحيحة عالية وصاحوا : « ويل للمجرم الأثيم ، أيسرق مال الله في بيت الله ؟ » ثم نودى بالشهود . فشهد عليه رهبان الدير ، ففسر الأمير مع الكاهن هنية ، ثم صاح :

« يقاد المجرم إلى ساحة الموت ، فقطع يمناه ثم يسراه ، ثم بقية أطرافه ، ثم يقطع رأسه ، ويقطع طعامًا للطير العادى والوحش الساعب ! » فبجنا الشيخ بين يدى الأمير ، ومد إليه يده الضعيفة المرتعشة يحاول أن يسترحمه ، فصرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه

ثم عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره ، أصفر يحيل بصطرب بين أيديهم خوفًا وقرقًا ، حتى وقفوا به بين يدى الأمير . فسأل :

(١) المِسْحُوح : جمع مِسْحٍ بالكسر ، وهو ثوب من شعر يلبسه الرهبان .
(٢) الطِيلَسَان : السوشاح أو الثقال .
(٣) أَسْلَمَ :
(٤) الغِرَازَةُ : وعاء من الخيش ونحوه لحفظ الحبوب .

العقاب

موضوعة

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالى الصيف الماضى كأنى هبطت مدينة كبرى ، لا علم لى باسمها ، ولا بموقعها من البلاد ، ولا بالعصر لذى يعيش أهلها فيه ، فمشيت في طرقها بضع ساعات ، فرأيت أجناسًا من البشر لا عداد لهم يبطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها ، فخيّل إليّ أَنَّ الدنيا قد استحالت إلى مدينة ، وَأَنَّ الدى أراه بين يدى إمامها هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه . فلم أزل أتقل من مكان إلى مكان ، وأداول^(١) بين الحركة والسكون حتى انتهى لى المسير إلى بنية عظيمة ، لم أر بين اليسى أعظم منها شأنًا ولا أهول مظنًا ، وقد ازدحم على بابها خلق كثير من الناس ، ومشى في أفيتها وأسمائها طوائف من الجند يحطرون بسيفوفهم وحمائلهم جيئة وذهوبًا ، فسألت بعض الواقفين : « ما هذه البنية ، وما هذا الجمع الممتد على بابها ؟ » فعلمت أنها قصر الأمير ، وَأَنَّ اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في حصوماتهم . وما هى إلا ساعة حتى نادى مناد فى الناس : « أَنَّ قَدْ اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه ، فدخل الناس ودخلت على أثرهم ، وجلست حجب انتهى لى المجلس ، فرأيت الأمير جالسًا على كرسي من الذهب يتلأأ فى وسط العماء

(١) دَاوَلَ كذا بينهم : جَعَلَهُ مُتَدَاوِلًا ، تَارَةً هُؤْلَاءَ وَتَارَةً هُؤْلَاءَ .

« ما جريمته ؟ »

فقال : « إنه قاتل . ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب ، فطالبه بأداء ما عليه من المال ، فأبى وتوقع في إلبائه ، فانتهره القائد فاحتدم غضبًا ، وجرد سيفه من غمده ، وضربه به ضربة ذهبت بحياته . »

فصاح الناس : « يا للمطاعة والحوول ! إن من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه . » ثم جىء بأعوان القائد المقتول ، فأدوا شهادتهم ، فأطرق الأمير لحظة ، ثم رفع رأسه ، وقال : « يقاد المجرم إلى ساحة الموت فيصلب على أعمود شجرة ، ثم تُقصد عروقه كلها ، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم . » فصرخ الغلام صرخة ، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن .

وما لبثوا أن عادوا بفنأة جميلة كأنها الكوكب المشبوب حسنًا وبياءً ، لولا سحابة غبراء من الحزن تتدجى فوق جبينها ، فقال الأمير :

« ما جريمته ؟ »

فقال القاضي : « إنها امرأة زانية ، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب ، كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم . »

فهاج الناس واحتدموا وهتفوا : « القتل القتل ! الرجم الرجم ! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى . »

فقال الأمير : « أين شاهدها ؟ »

فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها . فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة ، ثم قال الأمير : « تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت ، فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ، ولا على عظمها قطعة لحم . » فهلل الناس وكبروا إعجابًا بعدل الأمير وحزمه ، وإكبارًا لسلطوته وقوته ، وهتفوا له

ولكاهنه وقاضيه بالدعاء .

ثم نهض فنهض الناس بنهوضه ، ومضوا لسيلهم فرحين معبطين ، وخرجت على أثرهم حزينًا مكتئبًا أفكر في هذه المحاكمة الغريبة ، التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم ، ولم يشهد فيها على المتهمين غير خصومهم ، ولم تعدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم . وأعجب للناس في ضعفهم واستخذائهم أمام القوة القاهرة ، وعلوهم في تقديرها وإعظامها ، وإعراقهم في الثقة بها والروول على حكمها عدلاً كان أو ظلمًا ، رحمة أو قسوة ، وأردد في نفسي هذه الكلمات :

« ليت شعري : ألا يوجد بين هذه الجماهير لص أو قاتل أو زان يعلم عندهم فيرحمهم ، وينظر إلى جرائمهم بالعين التي ينظر بها إلى جريمته ، ويتمنى لهم من الرحمة والمغفرة ما يتمنى لنفسه ، إن قدر له أن يقف في موقف مثل موقفهم أمام قضاة مثل قضائهم ؟ »

« ألا يجوز أن تكون الرأية غير زانية ، والقاتل إنما قتل دفاعًا عن عرضه أو ماله ، واللص إنما سرق ما يسد به جوعته أو جوعته أهل بيته ؟ »
« ألم يرتكب الأمير جريمة القتل مرة واحدة في حياته ، فيرحم القاتلين عند النظر في جرائمهم ؟ »

« ألم يسقط إلى يد الكاهن يومًا من الأيام دينار من غير حله ، فتحف لوعة سغه على القرارة المسروقة من دهره ويغفر هذه لتلك ؟ »

« ألم تزل قدم القاضي مرة واحدة فيما مر به من أيام حياته ، فتهب ثورة صبه على الساقطين والساقطات ؟ »

« من هم هؤلاء الجالسون على هذه المقاعد يتحكمون في أرواح العباد المولاهم كما يشاؤون ، ويقسمون السعود والنحوس بين البشر كما يريدون ؟ »

« إنهم ليسوا بأنبياء معصومين ، ولا بأملوك مظهرين ، ولا يحملون في أيديهم عهدًا من الله تعالى بالنظر في أمر عباده وتوزيع حظوظهم وأنصبتهم بينهم . فبأي حق يجلسون هذه الجلسة على هذه الصورة ؟ ومن أي قوة شرعية يستمدون هذه السلطة التي يستأثرون بها من دون الناس جميعًا ؟ »

« من هو الأمير ؟ أليس هو المستبد الأعظم في الأمة ، أو سلالة المستبد الأعظم فيها ، الذي استطاع بقوته وقهره أن يتخذ من أعتاق الناس وكواهلهم سلمًا يصعد عليها إلى العرش الذي يجلس عليه ؟ »

« من هو الكاهن ؟ أليس هو أبرع الناس وأمههم في اشتغال النفوس الضعيفة والقلوب المريضة ؟ »

« من هو القاضي ؟ أليس هو أقدر الناس على إلباس الحق صورة الباطل والباطل صورة الحق ؟ »

« ومتى كان المستبدون واللصوص والظلمة أحيارًا صالحين وأبرارًا طاهرين ؟ »

« عجب جدًا أن يقتل الرجل الرجل لمصبة يفضها لعرضه أو شرفه فيسمى مجرمًا ، فإذا قتل الأمير القاتل سُمي عادلاً ، وأن يسرق السارق اللقمة فيقتل بها أو يقتل بها عياله فيسمى لصًا . فإذا أمر القاضي بقطع أطرافه والتثيل به سُمي حارمًا . وأن تسقط المرأة سقطاً ربما ساقها إليها خدعة من خداع الرجال أو نزعة من نزعات الشيطان ، فيستكر الناس أمرها ، ويستشعرون منظرها ، فإذا رأوها مشدودة إلى بعض الأنصاب عارية تتساقط عليها حجارة من كل صوب ، أنسوا بمشهدها ، وأعجبهم موقفها ومصورها ! »

« كما أن النار لا تطفىء النار ، وشارب السم لا يعالج بشره مرة أخرى ، وكما أن مقطوع اليد اليمنى لا يعالج بقطع اليد اليسرى ، كذلك لا يعالج الشر

بالشر ، ولا يعالج الشقاء في هذه الدنيا بالشقاء . »

ولم أزل أحدث نفسي بمثل هذا الحديث ، حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها أسراب من الطير غادية رائحة ، فاخرقتها حتى بلغت أبعد بقاعها ، فرأيت منظرًا هائلًا لا يرال أثره عالقًا بعسى حتى الساعة .

رأيت الشيخ جثة معفرة بالتراب لأرأس لها ، ولا أطراف ، ثم رأيت رأسه وأطرافه مبعثرة حواله كأنها نواذب يندبته حاسرات . ورأيت الفتى مشدودًا إلى شجرة فرعاء كأنه كأنه بعض أغصانها ، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبهًا مائلًا ، أو خيالًا ساريا . ورأيت الفأة كتلة حمراء من اللحم لا يستبين لها رأس ، ولا قدم ، وقد أحاطت بها أكوام من الحجارة المخضبة بدمائها ، ثم رأيت بحاب هذه الحثث الثلاث حفرة جوفاء تفهق بالدم ، فعلمت أنها تجمع دماء هؤلاء المساكين ، فشعرت كأن سحابة سوداء تهبط على عيني قليلًا قليلًا ، حتى غاب عن نظري كل شيء ، فسقطت في مكالي لا أشعر بشيء مما حولي ، فلم أستفق حتى مضت دولة من الليل .

فتفتحت عيني فإذا شبح أسود يدنو مني رويًا رويًا ، فارتعت لخطره ، وفزعت إلى ساق الشجرة فاحتجأت وراءه ، فما زال يتقدم حتى صار بجانبى ، فأشعل مصباحًا صغيرًا كان في يده ، فبينته على نوره ، فإذا عجوز شحطاء في رى المساكين وسحتهم ، فمشت تصمخ وجوه القتل حتى بلغت مصرع الشيخ ، فجثت بجانبه ساعة تكيه وتندبه ، ثم مشت إلى رأسه وأطرافه فجمعتها وضمتها إلى جسده ، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفتها فيها ، وقامت على قبره تودعه وتقول :

« في سبيل الله ما لقيت في سبيل وسبيل أحفادك الوفاء أيها الشهيد

المظلوم ، وفي ذمة الله وكفنه روح طار عن جسدك ، وجسد ضمه قبرك ،
 فقد كنت خير الناس زوجاً وأباً ، وأظهرهم لساناً ويداً ، وأشرفهم قلباً
 ونفساً ؛ فاذهب إلى ربك لتلقى جزاءك عنده ، واطلب إليه الرحمة لجميع
 الناس حتى لقاتليك وطالميك ، واسأله أن يلحقني بك وشيكا ، فلا شيء
 يعزيني عنك بعد فراقك إلا الأمل في لقاءك !

فأمكنني بكأزها وأحزنتني منظرها ، ووقع في نفسي أنها صادقة فيما
 تقول ، وأن شيخها شهيد من شهداء القضاء . وأحببت أن أقف على قصتها
 وقصته ، فبرزت من مخبي ومشييت إليها ، فارتفعت لمراى عند النظرة
 الأولى ، ثم سكنت كأنما ذكرت أن لا قيمة لمصائب الحياة بعد مصابها الذي
 نزل بها .

فابتدرتها بقولي : « لا تراعي يا سيدتي ، فإنني رجل غريب عن هذا البلد
 لا أعرف من شأنه ، ولا من شأن أهله شيئا ، وقد رأيت الساعة موقفتك على
 هذا القبر وتفجعك على ساكنه فرثيت لك وبكيت لبكائك ، ونميت لو
 أفضيت إلي بذات نفسك ، علني أستطيع أن أكون لك عوناً على همك . »
 فاستعبرت هاكية وأنشأت تحدثن وتقول : « إن زوجي لم يكن في يوم من
 أيام حياته لصاً ولا سارقاً ، بل قصي أيام شبابه وكهولته عاملاً مجداً لا يفتر
 ساعة واحدة عن السعي في طلب رزقه ورزق أهل بيته حتى كبر ولده ، وكان
 واحده ، فاشتد به مساعده واحتمل عنه بعدما كان يستغل بحمله من المم . وما
 هو إلا أن نعمنا به وبعمولته حقبة من الدهر ، حتى نزلت به نازلة الموت فذهبت
 بحياته أحوج ما كنا إليه ، وخلف وراءه خمسة أولاد صغار لا يتجاوز أكبرهم
 العاشرة من عمره . وكانت قد أدركت أباه الشيخوخة ، فاجتمع عليه هم
 الكبر وهم الشكل ؛ فأصبح عاجراً عن العمل لا يستطيعه إلا في القية بعد

القية (١) ، وأصبحنا جميعاً في حالة من الشقاء والبؤس ، لا يعرف مكانها من
 نفوسنا إلا من ألم به في حياته طرف منها ، حتى طلعت عليها شمس يوم من
 الأيام ، وليس في يدينا ما نقوم به أصلا صغارنا ، ولا ما نعلمهم به تعليلاً ،
 فأسقط في يدينا ، وعلمنا أننا هالكون جميعاً إن لم يتداركنا الله برحمته من
 عنده .

« فلم أربداً من أن ألبأ إلى الخطة التي يلجأ إليها كل مضطر عديم ، فبرزت
 إلى الناس أنعرض لمعرفهم وأستدي ماء أكهمهم ، فلم أجد بينهم من يحسن
 إلي بجرعة أو مضعة ، ولا من يدلني على سبيل ذلك . وكان أكبر ما حال بيني
 وبينهم وصرف وجوههم عني ، أني ألبس مرقعة الشحاذين ، ولا أحمل
 ركنوتهم (٢) فعدت إلى منزلي وبين جنبي من المم ما الله به عليم ، فرأيت
 الأطفال سهذا يتضاعون (٣) جوعاً ، ورأيت الشيخ جالساً بينهم يبل قربة
 الأرض بدموعه ويقرع كفه بكفه لا يعلم ماذا يصنع ، ولا كيف يتخال ، ولو
 أن شخص الموت برز إلي في تلك الساعة ، لكان منظره أهون على نفسي من
 منظر هؤلاء الصبية ، وهم يحلقون في وجهي عند دخولي ، ويدورون حولي
 ليروا هل عدت إليهم بما يسد جوعتهم ، وما عدت إليهم إلا باليأس القاتل
 والكمد الشامل .

« فتقدمت نحو الشيخ ، وقلت له : إن في دير المدينة كما يرمعون مالاً
 للصدقات ، يتولى الكاهن الأعظم إيفاقه على الفقراء والمساكين ، فلو ذهبت
 إليه وكشفت له خلتيك وسألته أن يمسحك غلالة تستعين بها على أمر لرجونا
 أن نطقني لوعة هؤلاء الأطفال المساكين .

(١) القية : الساعة والمم . (٢) الركنوة : وعاء للماء حل صورة الزورق بحمله
 (٣) يتضاعون من الجوع : يتضورون منه .

فاستنار وجهه بنور الأمل ، وقام إلى عصاه فاعتمد عليها ومشى إلى الدير حتى بلغه ، فصعد إلى حجرة الكاهن حتى وقف بين يديه ، فنفض له جملة حاله وسكب تحت قدميه جميع ما أهدت الأيام في جفنيه القريحين من دموع ، فاستقبله الكاهن بأقبح ما يستقبل به مسؤول سائلاً ، وقال له : إن الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل ، وما كنت في يوم من أيام رغبتك ورغائك من المحسنين إليه ، فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك ، فإن ضاقت بك ، فأبواب الجرائم أوسع منها !!

فخرج من حضرته كئيلاً محزوناً لا يرى فصاء الدنيا في نظره إلا ككفة الخابل^(١) أو أفحوص^(٢) القطة ، حتى نزل إلى ساحة الدير فلمح في إحدى زواياه غرارة^(٣) دفين فحدثته نفسه بها ، وما كانت تحذره لولا العوز والعاقبة ، ثم أدركه الحياء ، فأغضى عنها واستمر سائراً في طريقه حتى صار بجانبها ، فوقع نظره عليها مرة أخرى ، فعاوده حديثه الأول فحاول دفعه ، فلم يستطع ، فجلس بجانبها يحدث نفسه ويقول : إن الطعام طعام الفقراء والمساكين ، وأنا فقير مسكين ، لا أعلم أن بين أسوار هذه المدينة ، ولا في جميع أربابها رجلاً أحوج ، ولا أفقر مني ، فإن كان الطمع في هذه الغرارة جريمة فقد أذن لي الكاهن بارتكاب الجرائم في سبيل العيش .

ثم مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها جاهلاً مترجماً ، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل ، وشعر أنه عاجز عن المسير فحدثته نفسه بإلقائه

(١) الخابل : الصائد لأنه يرمى الحبال للصيد ، ويحتمه . خباله . (٢) الأفحوص : حفرة تحفرها القطة أو الدجاجة في الأرض لتبص وترقد فيها . (٣) البرارة : وعاء من الخيش ومحوه لخطبه الخيوب (٤) لألقاء جمع لقي ، وألقى الشيء القلق المطروح

عن ظهره . ثم تمثل له مظهر أحفاده الصغار ، وهم ألقاء^(١) تحت جدران البيت يتضورون جوعاً ، فحمل على نفسه ومشى يعتمد على عصاه مرة ، وعلى الجدار مرة أخرى ، حتى نال منه الجهد فأحس كأن أنفاسه قد حذت في صدره لا تبيط ، ولا تعلق ، وأن ما كان باقياً في عينيه من نور قد انطفأ دفعة واحدة ، فأصبح لا يرى شيئاً مما حوله ، وإذا نفثة من دم دقت من صدره فأحذرت على رذائه ، فسقط في مكانه مغشياً عليه .

ولم يزل على حاله تلك ، حتى مر به العسس^(٢) فراؤه ورأوا الغرارة بجانبه فارتابوا به ، وكان رهبان الدير قد أخذوا يتصالحون فيما بينهم : العرارة ، العرارة ! وينشدونها في أنحاء الدير حتى يتسروا منها فخرجوا يطلبونها في كل مكان حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ ففرغوا صالتهم ، وما هي إلا ساعة حتى كانت العرارة في الدير ، وكان الشيخ في السجن ، ثم كان بعد ذلك ما رأيت من أمره ، فوا أسفاه عليه لقد مات شهيداً مظلوماً ، ووارحمته لي ولأطفال البؤساء المساكين من بعده !

ثم هضت من مكانها ومسحت عبرتها بطرف رذائها ، ونظرت إلى القبر نظرة طويلة وقالت : « الوداع يا رفيق صباي ، وعماد شيخوختي ، الوداع يا خير الأزواج وأبزر العشراء ، الوداع حتى يجمع الله بيني وبينك في دار جزائه . » ثم انكفأت راجعة في الطريق التي جاءت منها .

وما هو إلا أن تغلغل شخصها في أعماق الظلام ، حتى رأيت شمساً آخر يتراءى من حيث اختفى الشبح الأول ، وما زال يتقدم نحوي متسللاً يختلس خطواته احتلاساً ، فاختصأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع ، وكان القمر

(١) الألقاء : جمع لقي ، وألقى الشيء المطروح . (٢) العسس : الطامنون بالليل لغراسة الناس أو كشف أهل الرية .

قد بدأ يشرف على الوجود من مظهره ، ويرسل الخيوط الأولى من أشعته على تلك الساحة الكبرى ، فرأيت الشبح على نوره . فإذا فتاة جميلة باكية لم أرى حياتي دمعة على خد أحمل من دعمتها على حدها ، فدارت بعينيها لحظة ، حتى وقع نظرها على جثة المصلوب بين أعواد الشجرة ، فمشيت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالت عقده حتى انحلت ، ثم احتملت على يدها وأصبعته على الأرض ووقمت بجابه ساعة تنظر إليه جامدة ساكة كأنها غير آبهة ولا حافلة ، ثم هتفت صارخة : « واشقيقاه ! » وسقطت فوقه تضمه وتقبله وتلم شعره وجبينه وترفر فيما بين ذلك رهيرا متداركا ، كأنما تفت أعلام كبدتها بعثا ، حتى نال منها الجهد هزعت قليلا ثم هوت بجابه هوى الجذع الساقط لا تحرك بها .

فأهمني أمرها وخفت أن يكون قد لحق بها مكروه ، فمشيت إليها حيث صرت بجانبها فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها ، فعلت أنها حية ، فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله لها حتى استفاقت بعد هبة ، فرأيت بجانبها فنظرت إلى نظرة حائرة ، ثم تقدمت نحوى وقالت :

« على من تبكى أيها الرجل الغريب ؟ »

قلت : « أبكى عليك يا سيدتى وعلى فقيدك البائس المسكين . »
 قالت : « نعم . إنه بائس مسكين فابك عليه يا سيدى كثيرا ؛ فقد كان زينة الشباب وزهرة الحياة وريحانة الموس وتمعنة الأصدقاء والقلوب ، ولقد ظلموه إذ قنبوه ؛ فما كان قاتلا ولا محرما ، ولكنه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه ، فقطع تلك اليد الممتدة إليه ، وانتقم لنفسه وللشرف والفضيلة منها ، ولو أنصفوه لا ستبقوه رحمة به وبشبابه ، فما أجرم من فاد عن عرضه ولا أثم من قتل قاتله . »

قلت : « هل لك أن تقصى على قصته يا سيدتى ؟ »
 قالت : « نعم . نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمر بأبيات القرية بيتا بيتا حتى بلغ منزلنا ، وكنت واقعة على بابي فطرأ على نظري مربية طار لها قلبى رعبا وفرقا ، ثم سألتني عن أحي فأرشدته إلى مكانه ، فسأله عن المال فاستسأه^(١) إليه أياما قلائل حتى يبيع غلته ، فأبى إلا أن يتقدم الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء . »

« وغمرني بعض أعوانه فداروا حولي ، وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير ، فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات ، ففرعت إلى أحي ولصقت به ، فوقف يسي وبين الرجل ، وقال له : لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال ، وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعا ؛ فإن كان لا بد لك من رهينة فأنا رهينة مالى حتى يصل إليك . فقال له : لا بد لي من المال أو الرهينة ولا بد أن تكون الرهينة كما أريد ، فإن أبيت فحياتك فداء عنها . »

« فغضب أحي غضبة انتعص لها في جبينه عرق ، لم أره في ساعة من ساعات عصيه قبل اليوم ، وقال له : فلتكن حياتي فداء لشرفي . ثم جرد سيفه وصربه به صرية طارت برأسه ، ووقف في مكانه لا يرحه وسيفه يقطر دما حتى غل^(٢) الأعوان واحتملوه إلى السجن ، فتلكت حياته يا سيدى وذاك مماته ، فلتى بكبته ، أنا أبكى فتي الفتيان همة ونجدة ، ونادوة الرجال عزة وإباء ، وأفضل الإحوة رحمة وحنانا . »

(١) استسأ غريمه القس : طلب منه أن ينسعه أى : يؤجله له .
 (٢) غل : وضع لي

ثم قالت : « هل لك أن تعينني يا سيدي على مؤارثته قبل أن يحول النهار بيني وبينه فقد أصبحت واهية متضعضة ، لا أقوى على شيء ؟ »

فقمتم إلى الشجرة فاحتفرت حول ساقها حفرة بجانب حفرة الشيخ فوارثته فيها ، فتقدمت الفتاة نحو القبر وجثت بجانبه ساعة مطرقة ساكنة ، لا أعلم هل هي باكية أو داهية ، حتى فارقت مكانها ، فرأيت تربة القبر مخضلة بدموعها ، ثم مدت يدها إليّ وقالت :

« شكرًا لك يا سيدي فقد أعنتني على موقف قلما يجد فيه مستعين معينًا ، ومضت لسيلها . »

فأتبعها نظري حتى اختفت آخر طية من طيات رداثها ، فعدت إلى نفسي ، فإذا جثة الفتاة المرحومة لا تزال مكانها ، فهاجني منظرها ، وقلت في نفسي : « إنني لا أدخر لنفسي عملاً أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه ، أفضل من مؤاراة هذه المسكينه التراب . » فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين ، ثم ألقيت عليها رداً واحتملتها على يدي حتى أضجعتهما في حفرتهما .

فإني لأحس عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائي ، فالتفت فإذا فتى يافع متلفع يردة سوداء لا يستين منها غير يياض وجهه ، فابتدرني بقوله : « من صاحب هذا القبر الذي تحنو تراه يا سيدي ؟ »

قلت : « فتاة مرحومة ، رأيت جثتها الساعة مبدودة في هذا العراء ، فرحمت مصرعها ، واحتفرت لها هذا القبر الذي تراه . »

فقال : « إن لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأنًا ، فهل تأذن لي أن أودعها الدواع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها ؟ »

قلت : « نعم شأنك وما تريد . »

وتسحيت قليلاً ، فدنا من القبر وجثا فوق تربته ، وظل يهاجي لدفينة بجاء خلعت أن الكواكب تردده في سمائها والرياح في أجوائها ، حتى اشتفت نفسه ، فقام إلى التراب يبيله عليها حتى واراها .

ثم التفت إليّ وقال : « لقد شكر الله لك يا سيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها ، وحفظ ما أصاعوا من حرمتها ، فجزاك الله خيراً عما فعلت ، وأحسن إليك كما أحسنت إليها . » وأراد الرجوع فاستوقفه ، وقلت له : « وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول ؟ »

فانفرجت شفثاه عن ابتسامه مرة ، ونظر إليّ نظرة هادئة مطمئنة وقال : « نعم يا سيدي . ولولا ذلك ما رأيته الساعة واقفاً على حافة قبرها أندسها . أما الرجل الذي اتهموها به ، وأستطيع أن أقول لك ، كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعاً إليه طلامتها : إنها بريئة مما رموها به ، وإني أظهر من الزهرة المظلولة ، وأنقى من القطرة الصافية . »

« لقد أحسيت هذه الفتاة مذ كانت طفلة لاعبة ، وأحبتي كذلك ثم شبنا وشب الحب معنا ؛ فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص ، ثم خطبتها إلى أبيها فأخطبني ^(١) راضياً مسروراً ، حتى إذا لم يبق بيني وبين الساء ^(٢) بها إلا أيام معلودات ، إذ نزلت بأبيها مارلة الموت ، فعلمنا أن لا بد لنا من الانتظار بأنفسنا عامًا كاملاً ، ففعلنا . »

« حتى إذا انقضى العام أو كاد ، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها ، فراها القاضي فبعتها نفسه فأرسل وراء عمها ، وكان

(١) أخطبته : قبل خطبته . (٢) البقاء بها : الزفاف إليها .

ولى أمرها بعد أبيها ، وهو رجل من الطامعين المدهاتين الذين لا يبالون أن يتخوضوا بحراً من الدم إذا تراءى لهم على شاطئه الآخر دينار لامع ، فعرض عليه رغبته في الزواج من ابنة أخيه ، فطار بهذه المسحة فرحاً وسروراً ، ولم يتردد في إجابة طلبه . وعاد إلى الفتاة يحمل إليها هذه البشري ، فاستقبلته بوجه باسر وقالت له : إننى لا أستطيع أن أكون خطيبة رجلين في آن واحد ، فلم يُبل بقولها وقال لها : ستزوجين ممن أريد طائفة أو كارهة ، فلا خيل لك في نفسك إنما الخيار لى في أمرك وحدى !

« وما هى إلا أيام قلائل حتى أعلنوا لها عدة زواجها وسموا يومًا لرفافها ، فما غربت فمس ذلك اليوم ، حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية ، وخرجت تحت ستار الليل هاتمة على وجهها لا تعلم أين تذهب ، ولا أى طريق تسلك . وكان عمها قد رفع إلى القاصى أمر فرارها ، فبث عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان ، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران ، فأقبل عليها فذعرت لمرآة وتركت حقيبتها مكانها ، وفرت بين يديه تعلقو علواً سريعاً .

« وكنت عائداً في تلك الساعة إلى منزلى ، فرأيتى فألقت نفسها على وقالت : إنهم يتبعوننى ، وإنهم إن ظفروا بى قتلونى ، فارحنى يرحمك الله . فأهمنى أمرها وذهبت بها إلى منزلى وأخفيتها في بعض حجراته . وما هى إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاصى يطلبها طلباً شديداً ، فأكرت رؤيتها فلم يصدقنى ، وأحد يصرب أبواب الحجرات ياباً ياباً حتى ظفربها ، فصاح : ها هى الفتاة الرانية ، وهذا صاحبها . فأقسمت له بكل عرجة من الأيمان أنها بريئة مما يرميها به ، فلم يصغ لى ، وأمر الأعوان فاحتملوها ، وحاولت أن أحول بينهم وبينها ، فضربنى أحدهم على رأسى

ضربة طارت بصوالى فسقطت مغشياً على ، فلم أستفق إلا بعد ساعة ، فوجدت الحمى قد أخذت مأخذها من جسمى ، فلزمت فراشى بضعة أيام لا أفيق ساعة ، حتى يتمثل لى ذلك المنظر الذى رأيته ، فأشعر بالرعدة تتمشى في أعضائى ، فأعود إلى دهولى واستغراقى ، حتى أدركنى رحمة الله فأبلت مند الأس بعض الإبلال ، واستطعت أن أخرج الليلة من منزلى ، فعلمت ما تم من أمر تلك المسكينة ، فحنت كما ترائل أودعها الودع الأخير ، وأوارى جثتها التراب ، وما أنا بالسالى عنها ، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها .

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طياتها جميع معانى النظرات البائسات من حزن وبأس ولوعة وشقاء ، ومضى لسبيله .

« ما أبعد إلا قليلاً حتى رأيت القمر ينحدر إلى مغربه ، ثم ماليت أن اختفى فإذا الفضاء ظلمة وسكون ، وإذا الساحة وحشة وانقباض ، فصعدت على ربوة عالية مشرفة على القصور الثلاثة ، ثم تلفعت بردائى ، وألقيت رأسى على بعض الصخور ، وأنشأت أحدث نفسي وأقول :

« ليت شعرى ! ألا يوجد في هذه الدنيا عادل ، ولا راحم ، فإن خلعت منهما رقعة الأرض ، فهل خلعت منهما ساحة السماء ؟

« أجزم الزعيم الدينى ؛ لأنه ضئ على ذلك الشيخ المسكين بدرهم من مال يسد به جوعته وجوعة أهل بيته ؛ فاضطر الرجل إلى ارتكاب جريمة اسرقة ، فعوقب السارق على سرقة ، ولم يعاقب القاسى على قسوته ، ولولا قسوة القاسى ما كانت سرقة السارق .

« وأجزم الأمير ؛ لأنه أرسل قائده لاحتطاف فتاة حرة لا تؤثر أن تجود بمرضها ، فاضطر أحوها إلى الذود عنها فارتكب جريمة القتل ، فعوقب القنى

على جريمته وسلم من العقوبة من دفعه إلى الإعدام .

« وأجرم القاصي ، لأنه أراد أن يكره فتاة لا تحبه على الرواح منه ، ففرت من وجهه فعاقبوها على فرارها ، ولم يعاقبوا القاصي على ظلمه واستبداده .
« وهكذا أصبح المجرم بريئاً ، والبريء مجرمًا ، بل أصبح المجرم قاضي البريء وصاحب الحق في معاقبته !

« فهل تسقط السماء على الأرض بعد اليوم ، أم لا تزال تنهرها بكراكتها ونجومها ، وتطررها غيثها ومزنها ؟ »

ثم التفت إلى مصرع المقبورين فوق نظري على بركة الدم التي اجتمعت فيها دماء هؤلاء الشهداء . فرأيت خيال نجم في السماء يتلألأ فوق صفحتها ، فرفعت نظري إلى النجم ، فإذا هو المريج^(١) يتلهب ويضطرم ، كأنه جرة الغيط في أفق الموتورين ، فعلق نظري به ساعة ، ثم رأيت كأنه يبط من عليائه رويدًا رويدًا ، فيعظم جرمه كلما ازداد هبوطه ، حتى إذا لم يبق فيه وبين الأرض إلا ميل أو بعض ميل ، إذا به يتنفذ انتفاضًا شديدًا ، وإذا هو على صورة ملك من ملائكة العذاب ينبعث الشرر من عينيه ويخرجه ، ويتطاير من أجنحته وأطرافه ، فلم يزل هابطًا حتى نزل على رأس الشجرة التي تطلل قبور الشهداء ، ثم صفق بجناحيه تصفيقة اهتزت لها جوانات الأرض وأصاعت بها الأرجاء ، ثم أخذ يطق بصوت كأنه جلجلة الرعد في آفاق السماء ، ويقول :

« ها هم الناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه ، وها هي الأرض قد ملكت شرورًا وفسادًا ، حتى لم يبق فيها بقعة طاهرة ، يستطيع أن يأوى إليها ملك من

(١) كوكب ، وهو أبيض ، مارس ، إله الحرب في الأساطير .

أملاك السماء .

« ها هم الأقوياء قد ازدادوا قوة ، والضعفاء قد ازدادوا ضعفًا ، وها هي لحوم الفقراء تسحق في بطون الأغنياء انحيازًا ، فلا الأولون مستمسكين ، ولا الآخرون بقانعين .

« ها هم الفقراء يموتون جوعًا ، فلا يجدون من يحسن إليهم . والمنكوبون يموتون كمدًا ، فلا يجدون من يعينهم على همومهم وأحزانهم .

« ها هم الأمراء قد حابوا عهد الله وخسروا دمامه ، فأعمدوا السيوف التي وضعها الله في أيديهم لإقامة العدل والحق ، وتقلدوا سيوفًا غيرها ، لا هي إلى الشريعة ، ولا إلى الطبيعة ، ومشوا بها يفتشون لأنفسهم طريق شهواتهم ولذائذهم حتى يبالوا منها ما يريدون .

« ها هم القضاة قد طمعوا وظلموا ، ووضعوا القانون ترسًا أمام أعينهم يصيبون من ورائه ، ولا يصابون ، وينالون من يشاؤون تحت حمايته ، ولا ينالون .

« ها هم زعماء الدين قد أصبحوا زعماء الدنيا ، فحولوا معابدهم إلى معاور لصنوص يجمعون فيها ما يسرقون من أموال العباد ، ثم يضنون بالقليل منه على الفقراء والمساكين .

« ها هم الناس جميعًا قد أصبحوا أعوانًا للأمراء على شهواتهم ، والقضاة على ظلمهم ، وزعماء الأديان على لصوصيتهم ، فلتسقط عليهم جميعًا نعمة الله ملوكًا وعلوكين ورؤساء ومرؤوسين .

« لتسقط العروش ، ولتهدم المعابد ، ولتتقوض المحاكم ، وليهم الخراب المدن والأمصار ، والسهول والأوعار ، والجبال والأغوار ، ولتفرق الأرض في بحر من الدماء يهلك فيه الرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والأحيار

والأشرار ، والمجرمون والأبرياء ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ٤

وما انتهى من دعوته تلك ، حتى رأيت بركة الدم تفور كما هار التنور يوم دعوة نوح ، ثم فاضت الدماء منها ، ومشت تتدفق في الأرض تدفق السيل المنحدر ، وإذا الأرض بحر أحمر يزخر ويصع ، ويكتسح أمامه كل شيء من زرع وضرع ، وقصور وأكواخ ، وحيوان وإنسان ، وناطق وصامت ، ثم شعرت به يملو شيئاً فشيئاً ، حتى صرّب بأموأجه رأس الربوة التي أنا جالس فوقها ، فصرخت صرخة عظيمة فاستيقظت من نومي ، وكان ذلك في صباح اليوم الثامن والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩١٤ فإذا صائح يصيح تحت نافذة غرفتي : إعلان الحرب !

الضحية

« مترجمة »

نشأت « مرغريت جوتييه » فقيرة لا تملك مالا تشتري به زوجها ، ولا تجد بين الرجال من يبيعها نفسه بلا مال ، أو يحسن إليها بما يسد غلتها ، ويستر عورتها ، وكان لا بد لها أن تعيش ، فلم تجد بين يديها سوى عرضها ، فذهبت به إلى سوق الشقاء والآلام ، فساومها فيه بعض المساومين بأجنس الأثمان ، فباعته ليهاء كارهة مرغمة ، وكانت من الخاسرين .

ولقد كان جمالها شؤماً عليها ، فلو أنها كانت شوهاء لوجدت في الناس من يرحمها ويحمي عليها ، ولكن الجمال سلعة من السلع الباققة (١) . لا يستطيع صاحبه أن ينال ما في أيدي الناس إن كان فقيراً معوزاً ، إلا من طريق المساومة فيه .

لذلك نقت تلك الفئاة المنكوبة على الرجال جميعاً ، وأقسمت أن تتخذ من جمالها ، الذي هو مطمع أنظارهم وقبلة آمالهم ، آلة انتقام تنتقم بها منهم ليرضها وشرفها .

ولقد برت يمينها بر الوفاء بعهدها ، فعاشت الرجال ولم تحبهم ، وتكبتهم في أموالهم ، وفي أنفسهم ، ولم تأسف عليهم ، ونظرت إلى دموع الباكين تحت قدمها نظرات الغبطة والسرور ، وهي تقول :

(١) نفقت السلعة : راجت ورغب الناس فيها .

« وُجِّعَ لَكُمْ يَا مَعْشَرَ الرِّجَالِ ، مَا كُنْتُ أَطْلُبُ مِنْكُمْ بِاسْمِ الْفَضِيلَةِ وَالشَّرَفِ إِلَّا رَغِيفًا وَاحِدًا لِفَنَائِي وَآخِرَ لِمَشَائِي ، فَأَيُّتُمُوهَا عَلَيَّ ، فَلَمَّا طَلَبْتُ مِنْكُمْ بِاسْمِ الرِّذِيلَةِ جَمِيعَ مَا تَمْلِكُ أَيْدِيكُمْ مِنْ مَالٍ وَنَشَبَ ، بِذَنبِهِ لِي طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، فَمَا أَصْغَرَ نَفُوسَكُمْ وَأَخْسَ أَقْدَارَكُمْ ! »

« وَلَقَدْ كَانَ فِي اسْتِطَاعَةِ أَصْغَرِكُمْ شَأْنًا ، وَأَهْوَنَكُمْ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى النَّاسِ جَمِيعًا ، أَنْ يَشْتَرِيَ مِنِّي جَسْمِي وَقَلْبِي وَحَيَاتِي بِلَا تَمْنٍ سِوَى سِدِّ تَحْتِي وَصِيَانَةِ عِرْضِي فَلَمْ تَفْعَلُوا ، فَهِيَ هُمُ أَوْلَاءُ الْيَوْمِ عِظَمَاؤُكُمْ وَأَشْرَافُكُمْ يَجْثُونَ تَحْتَ قَدَمِي جَثَى الْكَلْبِ الذَّلِيلِ تَحْتَ مَائِدَةِ سَيِّدِهِ ، فَلَا يَالُونَ مِنِّي أَكْثَرَ مِمَّا يَنَالُ مِنْهَا ! »
« أَحْبَبْتُمُ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ، فَأَيُّمٌ إِلَّا أَنْ تَتَزَوَّجُوا ذَاتَ مَالٍ لِتَصْمُومَ طَارِقَهَا إِلَى تَيْدِكُمْ ^(١) ، فَايْدُلُوا الْيَوْمَ لَامْرَأَةٍ مَوْمِسٍ لَا تَمَحُكُمُ مَالًا وَلَا حُبًّا جَمِيعَ مَا فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ قِضَّةٍ وَذَهَبٍ ، حَتَّى لَا يَبْقَى لَكُمْ طَارِفٌ وَلَا تَلِيدٌ . »

ظَهَرَتْ مَرْغَرِيْتُ فِي سَمَاءِ بَارِيسَ كَوَكَبًا مِثْلًا لِمَا يَسْعَثُ الْأَنْوَارُ وَيَهِيرُ الْأَمْطَارُ ، وَبِمَلَأَ أَجْوَاظَ الْفَضَاءِ بِهَجَّةٍ وَضِيَاءٍ ، فَطَارَتْ حَوْلَهَا الْعُقُولُ طِيرَانِ النَّحْلِ حَوْلَ الزَّهْرِ ، وَسَالَ النَّضَارُ بَيْنَ يَدَيْهَا سِيلَانِ الْجُدُولِ الْمُنْدَفِقِ تَحْتَ أَشْعَةِ الْأَصْبَلِ ، وَعَنَّتْ لَهَا الْوُجُوهُ الْكَرِيمَةُ ، وَتَعَفَّرَتْ تَحْتَ قَدَمَيْهَا الْجِبَاهُ الرَّفِيعَةُ ، وَأَصْبَحَتْ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ فِي يَدَيْهَا ، كَأَنَّمَا قَدْ سَلَكَهُمْ جَمِيعًا فِي سَلَكٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِطَرَفِ السَّلَكِ تَحْرِكُهُ فَيَتَحَرَّكُونَ ، وَتَمَسَّكَتْ عَنْهُ فَيَمْسُكُونَ .

وَكَانَ شَأْنُهَا مَعَهُمْ شَأْنًا صَاحِبِ الْكَلْبِ مَعَ كَلْبِهِ ، لَا يَشْبَعُهُ فَيَسْتَمِي عَنْهُ ، وَلَا يَجْمَعُهُ فَيَأْسُ مِنْهُ ، فَكَانَتْ تَمْلَأُ نَفْسَ عَاشِقِهَا أَمَلًا وَرَجَاءً ، حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّ قَدْ دَنَا بِهِ حَظَّهُ ، وَأَنَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُمِّهِ إِلَّا أَنْ يَمُدَّ إِلَيْهِ يَدَهُ فَيَنَالَهُ ، ذَادَتْهُ

(١) الطَّارِفُ مِنَ الْمَالِ : حَدِيثُهُ ، وَالْتَلِيدُ : قَدِيمُهُ .

عَنْهُ دُودُ الطَّامِئِ الْهَيْمَانِ عَنْ وَرْدِهِ أَدْنَى مَا يَكُونُ إِلَى فَمِهِ ، فَإِذَا عَلِمَتْ أَنَّ الْيَأْسَ قَدْ بَلَغَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ أَرْمَعَ أَنْ يَرْكَبَ رَأْسَهُ إِلَى حَيْثُ لَا مَرْدَلَهُ ، بَعَثَتْ وَرَاءَهُ شِعَاعًا مِنْ أَشْعَةِ ابْتِسَامَاتِهَا الْعَذْبَةِ الْخَلَابَةِ فَاسْتَرَدَّتْهُ إِلَيْهَا صَافِرًا مُسْتَسْلِمًا .

وَكَذَلِكَ أَصْبَحَتْ تِلْكَ الْفَتَاةُ الْحَاطَّةُ الْعَارِيَةُ الَّتِي كَانَتْ تَعْمُوزُهَا بِالْأَمْسِ اللَّقْمَةِ ، وَتَعْيِيهَا الْخُرْقَةَ ، سَيِّدَةً بَارِيسَ وَصَاحِبَةً عَرْشِهَا ، وَمَالِكَةً أَرْمَتِ رِجَالَهَا ، وَعَاجِجَةً قُلُوبَ نِسَائِهَا ، وَالسَّحْمَ الْخَالِقَ الَّذِي تَبْهَلُ إِلَيْهِ الْعَيُونُ ، وَالسَّرَّ الْقَامِضَ الَّذِي تَحَارُّ فِيهِ الظُّنُونُ .

ذَلِكَ مَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنْ أَمْرِهَا ، أَمَّا مَا تَعْلَمُهُ مِنْ أَمْرِ نَفْسِهَا ، فَهِيَ زَرَى أَنَّ جَمِيعَ مَا يَدُلُّهَا لَهَا النَّاسُ مِنْ قِضَّةٍ وَذَهَبٍ ، وَأَثَاثٍ وَرِيَاشٍ ، وَقُصُورٍ وَدُورٍ ، وَجِيَادٍ وَمَرْكَبَاتٍ ، لَا يَسَاوِي دُمْعَةً وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الدُّمُوعِ الَّتِي سَكَبَتْهَا عَلَى نَفْسِهَا يَوْمَ بَاعَتْ عِرْضَهَا ، وَأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ اللَّاتِي وَالْجَوَاهِرِ وَالْأَرْدِيَةِ وَالْيَسْجَانِ الَّتِي يَهْبُونَهَا ، إِنَّمَا يَهْبُونُهَا أَنْفُسُهُمْ لِيَتَمَتَّعُوا بِمَطَرِهَا فَوْقَ جَسْمِهَا ، كَمَا يَتَمَتَّعُ صَاحِبُ الْكَلْبِ بِمَطَرِ الْقِلَادَةِ فِي عُنُقِ كَلْبِهِ ، وَمَا لَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ ، مَكَانَمَا بَاعَتْ عِرْضَهَا بِلَا تَمْنٍ وَلَا جَزَاءٍ !

وَكَانَتْ تَخْلُو بِنَفْسِهَا حَيًّا فَذَكَرَ أَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الْقُلُوبِ الطَّائِرَةِ حَوْلَهَا إِنَّمَا تَطِيرُ عَلَى جَمَالِهَا لَا عَلَيْهَا ، وَأَنَّهُ إِنْ حَرَمَتْ هَذَا الْجَمَالَ سَاعَةً وَاحِدَةً انْفَضَّ النَّاسُ جَمِيعًا مِنْ حَوْلِهَا ، وَأَصْبَحَتْ وَحِيدَةً مُنْقَطِعَةً فِي هَذَا الْعَالَمِ ، لَا يُعْطِفُ عَلَيْهَا قَلْبٌ ، وَلَا تَبْكِي عَلَيْهَا عَيْنٌ ، فَتَبْكِي بِكَاءِ الْأَشْقِيَاءِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، بَلْ تَرَى أَنَّهَا شَقِيَّةٌ مِثْلَهُمْ ؛ لِأَنَّهَا تَعَاشِرُ مَنْ لَا تَحِبُّ ، وَتُحِبُّ مَنْ قَوْمٌ لَا يَحِبُّونَهَا إِلَّا حُبًّا كَاذِبًا .

وَرَبَّمَا مَرَّتْ فِي بَعْضِ غَدَوَاتِهَا أَوْ رُوحَاتِهَا بِفَرْقَةِ حَارِسِ قَصْرِهَا وَهُوَ جَالِسٌ

بين زوجته وأولاده يمنحهم حبه وإحلاصه ويمحونه من ذلك مثل ما يمنحهم ،
فتمنى أن لو كان حظها من هذه الحياة غرفة كهذه الغرفة وزوجاً وأولاداً
كهذا الزوج وهؤلاء الأولاد . ثم لا تقترح على دهرها بعد ذلك شيئاً .

وما رآها الناس في يوم من أيامها استقبلت في قصرها رجلاً متزوجاً أو
حاطباً ، فكانوا يحملون هذا الأمر منها على حمل الأثرة ، ويقولون إنها امرأة
طامعة لا تحب إلا أن يكون عاشقها خالصاً لها ، ولو أنهم عرفوا حقيقة أمرها
وألموا بسريرة نفسها ، لعلموا أنها امرأة حريمة مكوبة ، قد فجعها الدهر في
سعادة الزوجية فعمت قيمتها فهي لا تحب أن تفجع فيها امرأة غيرها .

لقد تحدث بعض الذين أُلوا بشؤون حياتها الخاصة أنها وهبت مرتين أو
ثلاثاً بعض الفتيات الفقيرات مهوراً يستعن بها على الرواح ممن يردن ، فلم
يصدق الناس هذا الخير وقالوا إن السالب لا يكون واحداً ، وإن ينبوع الخير
لا يمكن أن ينفجر في قلوب النساء الفاجرات ! ولكن الحقيقة أنها فعلت
ذلك ، وربما فعلت أكثر منه .

هذا هو قلب « مرغريت » ، وهذه هي سريرة نفسها ، فهي فتاة فاسدة
ولكنها غير راضية عن فسادها ، وساقطة ، ولكنها لا تحب أن ترى الفتيات
ساقطات مثلها ، ولو كان في استطاعة المرأة الساقطة أن تسترجع بتوبتها
وابائتها مكانتها في قلوب الناس ، وأن تمحو بصلاحها ما سلف من فسادها
لكانت هي أقرب النساء إلى التوبة والنزوع ، ولكن المجتمع الذي أسقطها
وسلبها ذلك الرءاء من الشرف الذي كانت ترتديه ، بأي شيء عليها أن يعيد إليها
رداءه إن طلبته ، فلا بد لها من الاستمرار في سقوطها راضية أو كارهة ،
وكذلك كان شأنها .

ولم يمض على « مرغريت » في حياتها هذه أكثر من بضعة أعوام ، حتى

نزل بها مرض حجبتها في بيتها عدة أيام ثم اشتد عليها ، فأشار عليها الأطباء أن
تذهب إلى حمامات « البانير » للاستشفاء بمائها وهوائها ، فسافرت إليها
وحدها لا تصحبها إلا خادمتها ، وكان في ذلك المصطاف (١) في هذا العام
شيخ من الأثرياء اسمه « الدوق موهان » حضر إليها مع ابنته وكانت مريضة
بداء الصدر ، ليستشفى لها من دائها فلم يُجدها العلاج وماتت بين يديه ،
فدفنها هناك ولبت بعد موتها عدة أيام يختلف إلى قبرها ويكيها بكاءً شديداً .

فإنه لعائد من المقبرة ذات يوم إذ لمح في طريقه « مرغريت » سائرة
وحدها ، وكان ذلك اليوم الثاني من وصولها إلى « البانير » ، فدهش لمطرها
دهشة عظيمة ، وحيل إليه أن الله قد بعث له ابنته من قبرها ، أو أرسل إليه حيالها
ليعريه عما لمكان الشبه بين صورة هذه الفتاة وصورتها ، فتقدم نحوها داهلاً
مشدوهاً وأمسك بطرف رداؤها ، وطل يحدق في وجهها تحديقاً طويلاً ،
فعبجت لشأنه وسألته ما باله ، فقال لها :

« هل تأذنين لي يا سيدتي أن أقبل يدك ؟ » فمدت إليه يدها وهي لا تعلم
ماذا يريد ولا ما الذي أصابه ، فلمستها ثم اعتذر إليها عن جرأته ، بذهوله
ودهشته ، ومشى معها يقص عليها قصته وقصة مصابه في ابنته وما راعه من
الشبه بين صورتها ، وصورتها ، فرثت له ، وحزنت لحزنه ، واستهلت دموعه
رأها الشيخ من خلال أهلاب عيها المبتلة بالدموع ، فسقط على يدها يقبلها
ويشكر لها تلك الدمعة التي جادت بها عليه في ساعة شقائه . ولم يزل سائراً
معهما حتى وصلا إلى التزل ، فودعها ومضى بعدما استأذنها أن يختلف إليها من
حين إلى حين ، فأذنته بذلك وصعدت إلى غرفتها .

(١) المصطاف : مكان الاصطيف .

فلما نعت بنفسها أنشأت تفكر في أمر تلك الفتاة المسكينة التي احتفظها الموت من يد أبيها في زهرة صباها من حيث لم يستطع طبيب ولا عائذ رد عادية القضاء عنها . ثم خطر لها أنها مريضة بمثل المرض الذي ماتت به ، وأنها ربما ماتت موتها فلا تجد بجانبها أباً كهذا الأب يديها ويكي عليها ، فأثرت في نفسها هذا الحاطر تأثراً شديداً ، وبكت له بكاء طويلاً ولزمت غرفتها في ذلك اليوم لا تعارفاً .

وظل « الدوق » يختلف إليها بعد ذلك فيحالفها طويلاً ويجد من الأس بها ، والاعتباط بعشرتها ، ما تسكن به لوعة نفسه كلما شها^(١) الوجد في صدره ، حتى أصبح لا يستطيع معارفتها ساعة واحدة ، وكأنما لُد لها أن يرى ذلك الشيخ الشاكل اسكوب في وجهها سلوته وعزابه ، فمنحته من عظمه وحبا ما لم تمنحه أحدًا من قبله ، وأنست به أنسا لم تأنسه بإسكان سواء . وما هي إلا أيام قلائل حتى أبت من مرضها بعض الإبلال^(٢) ، وعاد إلى وجهها الجميل رونقه وبهاؤه ، وإلى ثغرها البديع اجسامه وافزاره ، فلذا ما المقام في البانير أياماً طويلاً حتى شعرت بهبوب رياح الشتاء ، فأزمت العودة إلى باريس ، فشق ذلك على الدوق وعلم أنها إن عادت إليها لا يطعم منها في ذلك المرحوم العظيم الحافل بحلاها وأصدقائها بمثل ما كان يطعم به منها في الباسير ؛ فعلى ما ليلة السمر ساعة وحادثها حديثاً طويلاً انتهى بالاتفاق معها على أن تهجر حياتها الأولى ، حياة الخالة والمعاشرة وتعيش في منزل بيبوه ها ، ويقوم ببقائها فيه عى أن تأذن له بالاحتلاف إليها من حين إلى حين ، ثم سافرا في اليوم الثاني إلى باريس .

(١) شب النار : لوقتها .
(٢) أبلى من مرضه : برئ منه .

ومنذ ذلك اليوم تغيرت صورة حياتها عما كانت عليه من قبل ، فأصبحت تعيش في قصرها الذي هبأ لها الدوق عيشاً بين العزلة والاختلاط ، فلا تستقبل الناس فيه إلا قليلاً . ولا تخترع مع الذين تستقبلهم الامتزاج كله . وربما مرت بها أيام لا يراها الناس خارج قصرها إلا قليلاً ؛ فإذا خرجت ركبت عربتها وحدها دون رفيق أو رفيقة ، ومشيت في طريقها تقرأ في كتاب أو صحيفة ؛ فربما مر بها كثير ممن تعرفهم فلا تراهم ؛ فإذا وقع نظرها على واحد منهم اجسمت له ابتسامة قصيرة موجزة ، قلما يشعر بها أحد سواء ، ثم استمرت أدراجها حتى تصل منزله : الشانزلويه ؛ فنزل من عربتها وغمشى في الغابة على قدميها ساعة ثم تعود إلى قصرها . فإذا جاء الليل ذهبت إلى ملعب التمثيل وحدها ، أو مع الرجل القائم بشأنها ؛ ففضى فيه أكثر وقتها ناظرة إلى المسرح لا يشغلها كثرة الناظرين إليها أو المتهاقين على مقصورتها ، عن تتبع فصول الرواية والاهتمام بوقتها حتى تنتهي .

فلم تمض عليها أيام كثيرة ، حتى علم الناس جميعاً أن « مرغريت » قد استعالت حانها ، وتغيرت صورة حياتها وأنها قد قنعت بهذه الحياة الجديدة ؛ حياة الهدوء والسكينة ، والوحشة والانفراد ورضيتها لنفسها ، فلا سبيل إلى مخالبتها عليها فقصرت عنها أطماعهم وانقطعت منها آمالهم ، وظلوا يتلمسون الأسباب لتلك الحالة الغريبة التي طرأت عليها . فذهبوا في شأنها المذاهب كلها إلا المذهب الصحيح منها ، وهي أن تلك الحادثة المخزنة التي حدثت لابنة الدوق شبيبها في صورها ومرضها قد أثرت في نفسها تأثراً شديداً ، وصورت لها الحياة بصورة غير صورتها الأولى ؛ فأصبحت تعاف الرجال لأنهم سبب سقوطها وتستكر سقوطها أكثر مما استكرته من قبل لأنه سبب مرضها ، ولا تأسف على ما فاتها بما في أيدي الناس .

الدوق في نعمة لا يطعم طامع في أكثر منها . وربما حطرت لها أن حياتها مع هذا الشيخ الهرم الذي لا يطعم منها في أكثر من أن يراها ، تشبه حياة العذارى الطاهرات اللواتي ينعمن بنعمة الشرف في ظلال آباتهن ؛ فأعجبها هذا الخيال ولذا لها ؛ وكثيراً ما بكّت ذلك الشرف قبل اليوم وحتت إليه .

انقضت أيام الخريف وأقبلت أيام الشتاء ، وسالت الأجواء برداً وقراً ؛ فثار ما كان كامناً من داء مرغريت ، وعاد إليها نفثها وسعالها ، فظلت تكابد من مرضها آلاماً جساماً ، لا تعارفها يوماً حتى تعاودها أياماً ؛ فإن ألمت بها لزمت سريرها لا تفارقه ؛ وإن روحت ^(١) عنها برزت إلى الخلاء في بكور الأيام وأصاثلها تطلب الهواء الطلق والحو القى ؛ وربما ذهبت في بعض لياليها إلى ملعب التمثيل لتفرح ^(٢) ما هي فيه ، فتحلو بنفسها في مقصورتها ساعة أو ساعتين ، ثم تعود إلى منزلها .

وكانت لا تزال ترى في المقصورة المجاورة لمقصورتها كلما ذهبت إلى الملعب فتى في زى أبناء الأشراف وشماثلهم ، لا يزال يخالسها الطر من حين إلى حين ؛ فينظر إليها إن غضت عنه وبعضى عنها إن بطرت إليه ؛ ولا يتقى نظرها بظفره حتى يتلهب وجهه حمرة ويرفض جبينه عرفاً ؛ كأنما جنى جناية لا مقيم له منها ؛ فلم تحفل به كثيراً لأنها لم تر في أمره شيئاً جديداً ؛ إلا أنها كانت تعجب لسكونه وحموده ؛ وطول إعضائه وإطرافه ، ولتلك العبرة من الحزن المنتشرة على وجهه . وكان أكثر ما يدهشها منه أو يعجبها ، أنه الفتى الوحيد الذي كان ييكى في ذلك المجتمع لمطر المشاهد المحرمة التي تمثل على مسرح التمثيل ؛ لأنها تعلم أن الفتيان العرجين المعيطين بشبابهم وصحتهم

(١) روح عنه : تنس عنه ما يضيقه . (٢) تفرح : طلب ما يفرج عنه .

لا يحفلون بمناظر الشقاء الحقيقية فأحرى أن لا يحفلوا بتمثيلها . فلما خالية بنفسها في مقصورتها ذات ليلة ، وكان الجو بارداً مفسحاً إذ فاجأها نوبة سعال اشتدت عليها كثيراً حتى كادت تسقط عن كرسيها ضعفاً ووهناً فشمرت بيد تمسك يدها ، فاعتمدت عليها دون أن تستطيع الالتفات إلى صاحبها حتى بلغت عربتها هركتها ، مشمرت بالراحة قليلاً ، فالتفتت لتشكر لصاحب تلك اليد يده ، فلم تر أمامها أحداً ورأت على بعد خطوات منها إنساناً مصرفاً فلم تتمكن من رؤيته إلا أنها تخيلت صورته خيلاً ، فعجبت لأمره ومضت في طريقها . فما وصلت إلى مرلها حتى شعرت برعدة الحمى تمشى في أعصابها ، فلزمت سريرها بضعة أيام لا تفارقه حتى أبليت قليلاً ، فقدمت إليها خادمتها بطاقات الريارة التي تركها الفتيان الذين راروها في أثناء مرضها تجملاً وتلوفاً ، فلم تقرأ واحدة منها .

ثم حدثتها الخادمة أن فتى كان يأتي للسؤال عنها في كل يوم مرة أو مرتين ، ولا يذكر اسمه ، ولا يترك بطاقته ، وأنه كان يقبض انقباضاً شديداً كلما أخبرته أنها لا تزال طريحة فراشها تشكو وتئنم ، فاستوصفتها إليه فوصفته لها فلم تعرفه ، وعجبت لأمره كل العجب ، وتمت لو رأته فشكرت له هذا الإخلاص النادر ، الذي لا عهد لها به في أحد من الناس .

وأمرت خادمتها أن تخبرها غيره إن جاء للسؤال عنها مرة أخرى ، فلم يلبث أن جاء ، وكانت مرغريت جالسة في شرفة المنزل المظلة على الطريق ، فرأته فعرفت أنه ذلك الفتى الحزين الذي كانت تراه في المقصورة المجاورة لمقصورتها في ملعب التمثيل ، وأنه صاحب تلك اليد التي امتدت معونتها ليلة النازلة التي نزلت بها هناك ، فأشارت إلى خادمتها بالترو ل إليه واستدعائه إليها ففعلت ، فاضطرب الفتى لهذه الدعوة اضطراباً شديداً حتى كاد يرضها ، ثم

الأولى، ثم سألت عنك فعرفت من أمرك كل شيء، وعلمت أنك تعيشين منذ شهرين عيشة لا مطمع فيها لطامع ولا أمل لأمل، فانتقطع أمل منكم، إلا أن حتى أياك لم ينقطع، ثم رأيته بعد ذلك في ملعب التجميل ورأيت هذا القناع الأصفر الذي نسجته بيد المرض على وجهك الجميل، فاستحال حتى أياك رحمة وشفقة، وأصبحت أياك لمرضك أكثر مما أياك لجميلك. وأصبح كل ما أتمنى على الله في حياتي أن أراك بارئة ناعمة، موفورة لك حظك من سعادة العيش وهنائه، ثم لا أطمح بعد ذلك في شيء مما يطمع فيه المحزون المرمون. فأناف الساعة بين يديك لا أطارحك الحب والغرام، بل لأسأل أن تأذني لي بالوقوف على نياك كلما جتته أسأل عبادتك عنك، ثم أفضى لسبيل من حيث لا أترين وجهي، ولا تشعرين بمكانى.

فشرت في أعضائها رعدة غير الرعدة التي تعرفها من الحزن، وخيل إليها أنها تسمع نغمة في الحب غير النغمة التي كانت تسمعها قبل اليوم من أنواء الرجال، فظنرت إليه نظرة لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى. ثم قالت له: «إلى أذن لك بذلك يا سيدي، وأخبرك لك حكماً جريداً، بل أذكرك أن تروزي كلما شئت، على أن تغد إلي صديقاً مساعداً، لا عجباً مغرماً، فأني إلى الأصدقاء المخلصين أخرج معنى إلى الخبيرين المفرمين.»

ومدت إليه يدها، فعلم أنها قد أذنته بالانصراف، فقبلها وانصرف مسروراً مغتبطاً، فأثبته نظرها حتى غاب عنها، فسقطت على وسادة بجانبها، وقالت: «رحمك اللهم، فأني أخشى أن أحبه!»

لقد أحبه من حيث لا تدري، فإن الحروف من الحب هو الحب نفسه، بل شعرت في حبه بسعادة لم تشعر بمثلها من قبل، فأصبحت تستقبله كل يوم في منزلها، وتأنس به وعديده أنسا كئيباً، وتفضي إليه بذات نفسها إفضاء

شعر بمكان مرغبت من الشرفة فذوق ومشى وراء الخادمة، حتى وصلت به إلى غرفة سيدتها فركبه وانصرفت به. ثم دخل عليها وحياها ووجهه برفض عرفاً ولسانه لا يكاد يبين، فمدت إليه يدها فتأولها وقبها قبله طويلاً، عرفت مرغبت سر ما أودعها من عواطف قلبه، وهي العالة بأسرار القبلات، ثم أذنته بالجلوس، فجلس، فأشأت تسأله عن نفسه وعن قومه، وعن سبب اهتمامه بشأنها وتيسم له فيما بين ذلك إيصامات تطلقه بها، وتحسح عن قواده ما أكرم به من الروع.

فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته

فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته

فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته

فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته

فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته

فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته فحدثها أنه غريب من باريس، وأنه قد إليها منذ عشرين يوماً من بلدته

الصديق إلى صديقه ، وتقص عليه قصة ما صيها وحاصرها لا تكديه شيئا ولا تكتم عنه أمرا ، ثم ترمى بها الأمر ، حتى أصبحت تشعر بسوحشة ربح تحف عن ميعاد زيارته يصح دقائق . ثم حدث أن انقطع عن زيارتها ثلاثة أيام لأمر عرض له ، لم يتمكن من إحياء به ، فحزنت لانقطاعه حزنا عظيما وذهبت به الوسواس والظنون كل مذهب . ثم ذكرت أن ذلك حزن وهذا الوسواس ليس من شأها قبل اليوم ، ففقت لذلك قلقا شديدا ، وخفق قلبها خفقة الرعب والخوف ، وعلمت أنها قد وقفت على حافة الهوة ، ولم يبق إلا أن تتردى فيها ، فسهرت ليلة طويلة عاجلت فيها من بوارع النفس وخوارجها ما عاجلت حتى أصبح الصباح ، وقد أصبحت في نفسها أمرا .

جاءه أرمان ، في صباح اليوم الرابع ، فوجدتها طريحة فراشها ، وفي عينا حجره البكاء والسهرة ، فارتاع لمظهرها ، وقال لها :

« لعلك سهرت بالأمس كثيرا يا سيدتي أو بكيت فإني أرى في عينيك أثر واحد منهما .. »

قالت : « هما معا يا أرمان . »

قال : « وهل حدث شيء جديد ؟ »

قالت : « اجلس بجانبى قليلا أيها الصديق أحبك حديثك قصيرا ، وربما كان آخر حديث بيني وبينك ، ثم لا أراك بعد ذلك ولا تراقى . »

مدع دعرا شديدا ، ودخله من الرعب والهول ما ملك عليه عقله ولسانه ، فلم يستطع أن يقرب شيئا وسقط بحاسها راهيا متضمضعا ، وظل ينظر إلى وجهها نظر المتهم إلى وجه قاصيه ساعة طقه بالحكم .

فأقبلت عليه تمحده وتقول :

عرفتك يا أرمان ، فعرفت فيك الرجل الكريم الذي أحبب لنفسى أكثر مما ته على براحة أيامك منك !

أحبنى لنفسه ، والصديق الولي الذي امتزجت في قلبه عاطفة الحب بعاطفة الرحمة والحنان ، فأوى إلي مريضة حينما جفاني الناس لمضى ، وعاش معي بلا أمل حينما انقطع الناس عني لانقطاع أملهم منى ، فأضمرت لك في قلبي من الحب والاحترام ما لم أضمره لأحد سواك ، وسعدت بك سعادة لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي .

« ولكن الله الذي كتب لي المشقاء في لوح مقاديره من ضجعة المهد إلى رقدة اللحد ، لم يشأ أن يمتنع طويلا بهذه السعادة ، وأنى إلا أن يسلبنيها وشيكًا ، فقد أصبحت أشعر منذ أيام أن تلك العاطفة الشريفة المقدسة التي كنت أتمد منها سعادي وهنائى قد أخذت تستحيل لي أحماق فلس إلى عاطفة أخرى غيرها لا أريدها لنفسى ، ولا أرى إلا أنها ستكون سبب شقاق وبلاتى ، فخادعت نفسى عنها حينًا ، أكذبها مرة وأصدقها أخرى ، حتى كان ما كان من انقطاعك عني تلك الأيام الثلاثة ، شعرت لنفياك بحزن ألقنى وأمضى ، وملك على جميع عواطفى ومشاعرى ، ولو شئت أن أقول ، لقلت إنه أبكاني كثيرا ، وأسهرنى طويلا . »

« فعلمت وأأسفاه أنني قد أصبحت عاشقة ، وأن هذا الذى يحتج لي قلبى ، ويقيمنى ويقعدنى ، إنما هو الحب والغرام ، فقصيت ليلة الأمس كلها أفكر في طريق الخلاص من هذه الكبة العظمى التي نزلت في فلم أجد أحدا يخلصنى منها سواك ، فأنا أسألك يا أرمان ، باسم الصداقة والود الذى تعاقدا عليه بالأمس ، هل باسم الدموع التي طالما كنت تسكبها رحمة في وإشفاقا على ، أن تنقطع عن زيارتي منذ اليوم ، وأن تسافر إلى أهلك الليلة إن استطعت ، ثم لا تعد إلي بعد ذلك ، فأحمل نفسى على الصبر عنك حتى يمن

ثم نظرت إليه لترى ما يقول ، فإذا هو جامد مصمر ، كأن وجهه وجه تمثال منحوت ، وإذا عيناه شاخصتان إليها شخصوس العين القائمة (١) التي تنظر إلى الشيء ولا تراه وبعد لأي ما (٢) استطاع أن يحرك شفثيه ، ويقول لها بصوت خافت كهصوت الضمير :

« وما يخيفك من الحب يا مرعريت ؟ »

قالت : « يخيفني منه العقاب الأليم الذي أتوقع أن يعاقبني به الله على ما اقترفت من الذنوب والآثام في فاتحة حياتي ، فقد كتب الله لنا — معشر النساء الساقطات — في لوح مقاديره أن لا نزال نعبث بقلوب الرجال وعقولهم ، وببطلهم بصنوف العذاب وأنواع الآلام ، حتى يعضب الله لهم ويبار عليهم ؛ فيبتليهم بحمل فيه من العذاب جميع ما حملناه الناس من قبل ، ويشقى فيه شقاء لا ينتهي إلا بانتهاى حياتنا ، فنموت بين يدي أنفسنا مهملات مغفلات ، لا يتعانا ناع ولا يبكى علينا باك ، فهذا الذي أخافه وأخشاه ، وأحب أن يسبق إلى أجل قبل أن أراه . »

« أنا لا أتهمك بالخيانة والغدر يا أرمان ؛ فأنت أجل من ذلك عندي ، ولكنى أعلم أنك باق في هذا البلد إلى أجل ، فإذا انقضى الأجل سافرت إلى أمهلك سمرًا لا تملك بعده العودة إلى . فإن أيت إلا البقاء بجانبى حال أمهلك ينك وبين ذلك ؛ لأنهم قوم شرفاء يضمنون بك وبشرفك أن تلونهما امرأة مومس بعارها وشارها ، فلا تجد لك بدلًا من الخضوع لهم والزول على حكمهم ، وهالك أقف موقف الحيرة واللوعة أصلب السبيل إليك فلا أجذك ، والسلو عنك فلا أستطيعه . وربما حاولت بعد ذلك العودة إلى كنتف

(١) العين القائمة : التي ذهب نورها وبقيت حلقها صحيحة . (٢) الألى : الجهد المشقة ، و (ما) هنا الزائدة .

ذلك الشيخ الكريم الذي أحسن إلى إحسانًا كثيرًا ، مطردى من يده عذابها لي على خيانة عهده وكفر نعمته ، فلا أجذ لي بدلًا من الرجوع إلى حياتي الأولى — حياة الشرور والآثام ، والموموم والآلام — التي أبغضها بغض الأرض للدم ، وهالك العذاب الدائم والشقاء الطويل .

« إلى أعلم يا أرمان أنك تحبني حبًا حرمًا ، وأنتك متكابد في ابتعادك عنى عذابًا كثيرًا ، ولكنى أعلم أن لك قلنا شريفًا يحتمل العذاب في سبيل الرحمة ، فاحتمل هذا العذاب من أجلى ، فإليك أقدر مسى على احتمال الآلام والأوجاع ، وسأدعو الله تعالى ليلى وهارى أن يمضى الصبر عنك ، ويردنى راحة النفس وسكونها من بعدك ، وأن يمحك من ذلك مثل ما يمضى ، فلعله يرحمنا جميعًا ! »

فلم يكن له جواب على كلمتها هذه سوى أن نهض من مكانه متضعفًا متهالكًا ومشى إلى باب القاعة يسوق نفسه سوقًا حتى بلغه ، فوقف على عتبة ، والتفت إلى مرعريت ، وألقى عليها تلك النظرة التي يلقها المحتضر على أهله في آخر لحظات حياته ، وقال لها : « الوداع يا مرعريت ! » ومضى .

فما غاب شخصه عن عينيها حتى نهضت من فراشها هائمة مخيلة ، واندفعت إلى الباب تريد اللحاق به ! ثم تراجعت ثم حاولت ذلك مرة أخرى ، فأدركها رشدها وأناها ، فسادت إلى فراشها تبكى وتتعب ، وتقول إغوالًا شديدًا ، وتدور في أنحاء العرفة دوران الناكلة المصجوعة ، وهى تصيح : « أرجعوه إلى . لا أستطيع فراقه ، سأموت من بعده . »

ولما لكذلك إذ سمعت صرخة عطشى آتية من ناحية الحديقة ، فخرجت تعدو إلى حيث سمعت الصوت ، حتى بلغت باب المرل فرأت « أرمان »

ساقطاً تحت عنجه منشئاً عليه ، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت : ليكن ما أراد الله ، ثم ألقت نفسها عليه ولثمت ثمره لثمة هي أول لثمة دقت فيها لذة العيش في حياتها ، فشرع بها « أرمان » فاستغرق ، وضمها إلى صدره ضمة لو مات على أثرها ما بكى على شيء من نعيم الدنيا وهنائها !

انقضى الشتاء فانقضى بانقضائه شقاء « مرغريت » وعناؤها ، فقد أبليت من مرضها ، وأصبحت سعيدة بحبها ، فلم يبق بين يديها إلا أن تبلغ من تلك السعادة نهايتها ، فاقترحت على أرمان أن يترك باريس وضواحيها ، ومزدحم الحياة فيها إلى مصيف يختارانه لنفسهما في بعض الأماكن الخالية ، قبل مقترحها وسافرا معاً يفتشان عن المكان الذي يريدان حتى يلقيا قرية « بوجيفال » . وهي صاحبة من ضواحي باريس على بعد ساعتين منها ، يوجد في بعض أرباضها منزلاً صغيراً منفرداً واقفاً على رأس هضبة عالية في سفح جبل مخضر ، تجري من تحت بحيرة صافية بديعة كأنما بناه يانبه لهما ، فاكترياه ، ونقلت « مرغريت » إليه من منزلها في باريس بعض ما يحتاجان إليه من أثاث ومتاع .

ثم عاشا فيه بعد ذلك عيشاً ناعماً هيناً ، لا تضطرب في سماته غيمة ، ولا تمر بصفحة غيرة ، ولا يكدر عليهما مكدر من خواطر الشقاء ووساوسه ، فكانا يقضيان نهارهما صاعدين إلى قمة الجبل أو متحدرين إلى سفحه ، أو راكبين زورقاً صغيراً يسبح بهما على صفحة البحيرة جيئة وذهوباً ، أو جالسين تحت شجرة فرعاء تظللهما من لفحات المحير وتضمهما إليها كما تضم ثمارها ، أو مضطجعين على بساط من العشب الممتد في تلك البطحاء الفسيحة . يتناجان ويلهوان بمظهر الجمال المائل في الشاطئ ، والأمواه والأخاديد ، والوديان والغابات والخرجات ،

والكهوف والأغوار ، والعيوم والسحب والأصواء في تشكيلها وتلونها ، والظلال في تحوها وانتقالها ، وفي رؤوس الجبال اللاصقة بجلدة السماء كأنها بعض سحبها ، وفي قطع الصحور المبعثرة على جوارب العدران كأنها أمواجه ، وفي تلك الحركة التي تدور في كل يوم مرتين بين جيشي الأنوار والظلمات فيتصرف في صدر النهار أولهما ، ثم يُبدل في آخره لثانيهما . حتى إذا جاء الليل ، عادا إلى مرلحهما فنعما فيه بألوان النعيم وضرويه ، ورشفا من كل ثمر من ثمر السعادة رشمة تسري حلاوتها في قلبهما حتى تصيب صميمته . مرهما على ذلك عام كامل هو كل ما استطاعا أن يخلصاه من يد الدهر في عقلته ، ثم اتبته لهما بعد ذلك — وويل للسعداء من انتباهه بعد إعفائه — فقد نصب أو أوشك أن ينصب ما كان في يد « أرمان » من المال ، وكان في يده الكثير منه ، فكتب إلى أبيه يطلب إليه أن يبعث إليه بما يستعين به على البقاء في باريس مدة أخرى ، راعياً أنه لا يزال مريضاً متألماً لا يستطيع السمع ، وكذلك كان يعمل من حين إلى حين . فلم يأت الرد ، فأقلق ذلك قلقاً شديداً ، وظل يختلف إلى المدينة في كل يوم ، يسأل في فندق « تورير » الذي كان يزل به قبل اتصاله بمرغريت عن الكتاب الذي ينتظره فلا يجده ، فيعود حزيناً مقبضاً ، حتى إذا وصل إلى بوجيفال ورأى مرغريت بين يديه ، تطلق وتيسم كأنه لا يضمر في نفسه شيئاً قاتلاً .

ولكن عين مرغريت أقدر من أن يحجزها القفاذ إلى أعماق قلبه ، فاكنته سره فكاشته به ، وقالت : « لا يحزك شأن المال يا أرمان ! فإن عدى منه أما يكفيني العيش ممّا سنين طويلاً . »

ولم تكن صادقة فيما تقول لأن الدوق قاطعها ومنع عنها زفده مذ عرف

قصتها مع « أرمان » ، وعلم أنها خائنه وخانت بعهد ، بل كانت مدينة بمال كثير لبعض تجار الجواهر والثياب ، بل أصبح دائرها يتقاضونها ديونهم بعدما علموا أن الدوق قاطعها ونقض يده منها .

ولكنها خاطرت بكلمتها محاطرة لم تفكر في عاقبتها ، فأكبر « أرمان » ذلك وأعظمه ، وأنف منه أنفة شديدة ، وأنى أن يعيش معها بمال غير ماله ، وعزم أن يسافر إلى « نيس » ليأق منها بالمال الذي يريده ، فأزعجها عزمه هذا إزعاجاً شديداً وخافت عاقبته ، فجلت بين يديه تستعطيه وتسترحه ، وتبذل في ضراعتها ورجائها في سبيل بقاءه أكثر مما بذلت قبل اليوم في سبيل رحيله ، حتى أذعن واستقاد ، ورضى بالتى لم يكن يرضى بمثلها لولا مفة الحب وضراعة الدموع ، وقد أضمر في نفسه أن يتنازل لها عن نصيبه من الميراث الذى ورثه من أمه ، مكافأة لها ووفاء بحقها . فلم يكن لمزجيتها بعد ذلك بد من أن تمد يدها إلى جواهرها وذخائرها ، فأشأت تبيع القطعة بعد القطعة ، تسد بعض دينها ، وتقوم بنفقة بيتها ، من حيث لا يعلم « أرمان » واستمر على ذلك بضعة أشهر . حتى دخل عليهما في يوم من الأيام في ساعات أسهما وصفاثهما خادم فندق « تورين » الذى كان ينزل به « أرمان » فى باريس وقال له إن والده قد وصل الساعة إلى الفندق ، وإنه ينتظره هناك .

قال دو فال لولده : « لقد كذبت على كثيراً يا « أرمان » ، وما كنت قبل اليوم كذاباً ، ولا خادعاً ، ورضيت لنفسك بحياة كنت أضنّ الناس بنفسك على مثلها من قبل ، ومزقت بينك ذلك القناع الجميل من الحياء الذى لا يزال مسبلاً على وجهك ، وأصبحت تبذل في العيش مع امرأة عاهرة ، كل ما لها من الشأن عند نفسها ، وعند الناس جميعاً أنها نفاية من نفايات الرجال وفضلة من فضلات الفساق ، وفئات المائدة العامة التى يجلس عليها الناس جميعاً

صباحهم ومساءهم ، فحسبك هذا ، وقم الساعة لتعد نفسك للسفر معى إلى « نيس » ، « نلت بئارك بعد اليوم في هذا البلد ساعة واحدة . »
فرجع « أرمان » رأسه إلى أبيه ، وقال له بصوت هادئ مطمئن :
« لا أستطيع يا أبته ! »

مطر إليه أبوه نظرة شرراء ، وقال له : « وتلك سبعة أخرى ، فقد أصبحت لا تهابى ، ولا تهابى بمخالفة أمى من أجل امرأة ساقطة لا شأن لها معك إلا أن تعث بعقلك ، وتسلبك مالك وشرقت ، وتفسد عليك حاضرك ومستقبلك . »

قال : « لا يا أبته ! إنها ليست بعاهرة ولا حادعة ، ولكنها نجس جداً لم يحبه أحد من قبلها أحدًا ، وأحسب أنى إن فارقها قتلها ، وجئت عليها حماية لا يفارقتى الندم عليها حتى الموت . »

قال : « ذلك ما يحدع به أمثالها أمثالك ، فليس للنساء العاهرات تلوب يحبين بها ، بل لمن السن يجتلس بها الرجال ويسلبها خجلاً بين بعضهم وبعض ! حتى يظن كل واحد منهم أنه الأثير عندها ، وصاحب الخطوة لديها ، من دون أصحابه جميعاً . »

قال : « ربما كان ذلك شأنها قبل اليوم ، أما اليوم فهى لا تحب أحدًا غيرى ، بل لا تعرف أحدًا سوى ، فهى تعيش عيشة تشبه عيشة النساء الشريعات ، بل أشرف من عيشة الكثرات منهن ، لأن الخليفة التى تخلفن لخليفتها ، أشرف من الروجة التى تحون روحها ، وأحشى إن فارقها أن تنور في نفسها ثورة اليأس ترددها إلى تلك الحياة الأولى ، حياة الشر والفساد ، والشقاء والمذاب ، بعدما استقذت نفسها ! »

قال : « وهل ترى أن وظيفة الرجل الشريف في هذه الحياة إصلاح النساء

لثقاتك معين العظام إلى الورود ! وأعلم أن جميع ما تعتذر به عن نفسك في هذا الشأن ، لا يفتي عليك ولا يفتي شيئاً يوم يقول الناس : كلستم التي لا بد أن يقولوها عقداً . وربما قال : كثير منهم قبل اليوم إن أرمأن دوقال : سلاله آل الله الرشد يهيش مع امرأة موسى في بيت واحد ، فقد إلى نفسك يا بني واستلهم الساقطة التي يجاها من ليست له همة مثل همتك ، ولا عدد ولا يست مثل عدك وبيتك ، وإن تاركك الآن وحدك وداهب عليك لبعض شأنك لتحلز نفسك ساعة تسترد فيها ما عرب عليك من صوابك ، ثم أعود إليك بعد قليل لأصحملك الكلمة التي أرحو أن تكون شامة نفسي ، ورواة عثي .

ثم تركه ورجل فمشى إلى قهوة قريبة من الفندق فكسب فيها لبعض الناس كتاباً خاصاً . ثم طاف ببعض أصدقائه الذين يعرفهم في باريس ، فزارهم زيارة طويلة ، فلم يمد إلى الفندق حتى أطل الليل ، ف رأى أرمأن لا يزال في مكانه . فسأله ماذا رأى ، فلم يجبه إلا بدموعه تتحدر على خديه تحثر القطر على أوراق الرهر ، وجنايين يديه يستعطه ويسترحه ويكشف له من خبيثة نفسه ما كان يكتمه من قبل . يقول :

و الله يا أبت لو علمت أني أستطيع الحياة لدنيا ، لما رقتها برأيتك ولما رقتا لطاعتك ، ولكي أعلم أني إن فعلت فقد وضعت أمري في موضع الترتز^(١) ، وحاطرت بعقلي أو حيانى مخاطرة لا أعلم ماذا يكون حظي فيها . ولا أحسبه إلا أسوأ المطعنين ، وأغس النجسين ، ولو أن أحقاً من قولى استطاع أن يدفع حواه عن قلبه أو يحجو ما قنر له في صحبة قضائه من شقاء الملب وبلاعه

(١) الترتز : الصرض للهلكة .

المصادات ٢٢

قال : و ذلك خير له من أن تكون وطنيتك إفساد من : فإن الأشراف في هذا العصر يفسدون بإفساد النساء الصالحات ، واستمر أجهن إلى مواطن الفسق والفجور ، وإصلاح المرأة الفاسدة ، أدق إلى الشرف من إفساد المرأة الصالحة .

قال : و لقد أصبحت كثير الرحمة بأرمأن .

قال : و لا أرحم خاة مريضة مسكينة ليس لها في الناس من يعرفها من ذي قرابة أو ذي رحم ، وقد نزل دأؤها من صدرها ميرة لا يدركها ولا يتحلل عنها ، إلا أن يهابها جناً ويستيقظ أحياناً ، فهي تكابد الألم مرة ، والمخوف من الألم أخرى ، ولا هواء لها في حالتيها إلا هذه السمادة التي تحومها في الحب ، وترى أنها ناصمة بها ، فإن فقدتها فقدت كل شيء في الحياة ، وعظم حزنها ووبرسها ، وثقلت وطأة اللدء عليها حتى كادت تأث على البقية الباقية من حياتها .

و قد عني معها يا أبناه عاتماً آخر أو عامين أمرون عليها فهبما شفاعها ، فربما كان ذلك آخر ما قنر لها أن تقضيه من أيامها في هذا العالم ، ثم أعود بعد ذلك إليك هادئ القلب ، ساكن الضمير ، راضياً عن نفسي وعن عمل ، أبكيها بدموع الحزن ، لا بدموع الدم ، ويهون وجدى عليها كلما ذكرتني أنتي لم أحنها ، ولم أعلم بهبهما .

فاطرق دوقال هنية كأنها يواج في نفسه همماً مطعناً ، ثم رفع رأسه ، ونظر إلى ولده نظرة تشبه نظرة المطف والرحمة ، وقال له : و لا أستطيع أن أسافر بدونك يا بني فحسبي ما كابدت من الألم لفراقك قبل اليوم ، وقد تركت أحباتك ورأى تشبك وتبكي عليك صبايحها ومساءنها ، وتحث إلى

لست كنت سبيلها التي سلكها ، ولكنه بلاء بليت به لحين أريد لي ، فلا رأى لي في رده ، ولا حيلة لي في اتفائه ، وقد نزلت هذه العتاة من نفس منزلة هي منزلة الحياة من الجسم ، والعمى من التربة الفاحلة ، فإن كنت لا بد أخذى فخذ معك جسماً هامئاً لا يحرك به ، ونبتة داوية لا حياة فيها !

فوضع أبوه يده على عاتقه ، وقال له : « قم الآن يا بني واذهب لشأنك ، وعد إلى صباح الغد لأتم حديثي معك ، وأرجو أن تكون في غدك خيراً منك في أمسك . »

فخرج محزوناً مكتئباً يمشى يشبه الذاهل المشدود ، لا يرى ما أمامه ولا يشعر بما حوله حتى رأى عربة ، فركبها إلى بوجيفال حتى بلغها بعد ثلثة من الليل ، فلم ير مرغريت في شرفة البيت تنتظره كما دأبها ، فدخل صليها غرقها فرآها مكبة على منضدة بين يديها كأنما هي نائمة أو ذاهلة ، فشعرت به عند دخوله ، فنهضت مذعورة متلهفة . فخيل إليه عند نبوغها أنه لمع في يدها رسالة تضم عليها أصابعها ، فطنها بعض تلك الرسائل التي كان يرسلها إليها المركيز « جان فليب » من حين إلى حين ، وهو فتى من أبناء الأشراف الأثرياء كان يحبها في عهدها الأول حباً شديداً ، وينفق عليها أموالاً طائلة ، فلما انقطعت عنه لم يقطع منها أملاً ، فظل يرسل إليها رسائل كثيرة يعرض فيها حبه وماله ، ويمتدحها الأمان الحسن في عودتها إليه ، واتصال حياتها بحياته ، فكانت تمزقها عند اطلاعها عليها أو على عواصها .

فلم يحفل « أرمان » بذلك ومشى إليها فقبلها ، فقالت له : « ماذا يا أرمان ؟ »

قال : « أريد أن أرى على السفر معاً ، ويكفي بين يديه كثيراً فلم أنل منه مائلاً ، وقد أمرني بالعودة إليه غداً ولا أريد أن أقبل ، لأنني لا أحسب حظي

منه في المد غيراً منه اليوم . وقد أصبحت نفسي تحدثنى بعصباته ، والبقاء لها على الرغم منه ، لأنني أعلم أني قد تجاوزت السن التي يحتاج فيها الأباء إلى إرشاد الآباء ، ولأنني لا أعرف أحداً بين الناس يستطيع أن يرسم لي حطة سعادتي كما أرسمها لنفسى . »

ثم أنشأ يقص عليها قصته مع أبيه حتى أتمها ، ونظر إليها فإذا هي مطرقة صامتة ، وإذا وجهها أصفر مرهق كأنما قد نفّض الموت عليه عبارته ! فقال : « ما بالك يا مرغريت ؟ »

قالت : « أشعر بأن شديدة في رأسي ، وأريد الذهاب إلى مخدعي . فأخذ يدها إليه ، وحرّرها بضع قطرات من الدواء فاستفاقت قليلاً ، ثم نامت في مخدعها يوماً مشرداً مذعوراً ، تنخلله أنات طويلة وأحلام مزعجة ، حتى أصبح الصباح ، فقالت له : « أرى لك يا أرمان أن تعود إلى أبيك كما أمرك ، وأن تعاود استرحامه واستعطائه لعلك بالغ منه اليوم ما عجزت عنه بالأمس . إن لا أكون راضية عن نفسي ، ولا هاتئة بحياتي ، إن لم يكن أبوك راضياً عنك . »

ولم تقل به حتى أذعن لها وقام إلى ثيابه فارتداها . ثم مشى إليها وضمها إلى صدره ضمة شديدة ، كأنما يصسها أن يترعبها من دراعيه مترع ، ثم قبلها ، وقال لها : « إلى المساء يا مرغريت . » فلم ترد عليه نخيته حتى أبعد عنها ، فقالت بينها وبين نفسها : « أرجو أن يكون كذلك . » ونهضت على كمرسي بين يديها باكية متحبة .

ولم يقل أرمان سائراً في سبيله حتى وصل إلى باريس ، فذهب إلى فندق « تورين » فلم يجد أباه هناك ، ووجد رسالة تركها له قبل ذهابه بأمره فيها أن ينتظره حتى يعود ، فلبث ينتظره وقتاً طويلاً حتى عاد بعد منتصف النهار ،

وقد رقت قليلاً تلك الغمامة السوداء التي كانت تلبس وجهه بالأمس ،
تقدم نحوه أرمان ، فحيّاه ، فقال له :

« لقد فكرت ليلة أمس في أمرك كثيراً يا بني فرايت أني قد قسوت عليك
وغلوت في أمرك غلوّاً كبيراً ، ونظرت إلى مسألتك بعين أقصر من التي كان
يجب عليّ أن أنظر إليها ، فإن للشباب شأنًا غير شأن الكهولة والشيخوخة ،
وخاصة به ، لا يخرج عن حكمها شريف ولا وضيع ، ولا يختلف فيها
سوقة عن ملك ، فلك أن تبقى يا بني كما تشاء ، وأن تعاشر الفتاة التي تحبها كما
تريد ، على أن تعدني بالعودة إلّى في اليوم الذي تنقطع فيه الصلة بينك وبينها
انقطاع حياة أو موت ، فإني إن أمنت عليك شرها فلا آمن عليك شر غيرها
من النساء . »

فاستطير أرمان فرحاً وسروراً ، وأهوى على يد أبيه يقبلها ويملأها
بدموعه ، ويقول : « أعدك بذلك يا أبتاه وعداً لا أخالعه ، ولا أخيس به ،
ولك حكمك ما تشاء إن رأيتني بعد اليوم كاذباً أو حائثاً . »

ثم نهض يريد الذهاب ، فقال له :

« أين تريد ؟ »

قال : « أريد الذهاب إلى مرغريت لأبشرها بهذا النبأ وأمسح عن فؤادها
ما ألتم به من الروح منذ أمس . » فانتفض أبوه انتفاضة خفيفة لم يشعر بها
أرمان . ثم أدار وجهه ليغالب دمة كانت تترقق في عينيه .

ثم التفت إليه وقال : « ابق معي يا بني فربما سافرت غداً ، ولا أعلم بعد
ذلك متى أراك . »

فبقى معه اليوم كله حتى جاء الليل ، فأسأده في الذهاب إلى بروجيمال
فأذن له فحيّاه وخرج ، فأتبعه نظره حتى غاب عن عينيه ، فانحدرت من

جفنه تلك الدمة التي كان يحبسها من قبل ، وقال : « وارضحنه لك أيها الولد
المسكين ! »

حمل أرمان بين جنبيه آماله وآمال مرغريت وسعادتهما التي يرجوانها في
مستقبل حباهما ، وطار بها إليها ليقاسمها أياما حتى دنا من بروجيمال ،
فأدهشه أن رأى البيت مظلماً ساكناً لا يضطرب فيه شعاع ، ولا يترأى فيه
ظل ؛ فمشى إلى الباب فرآه مرتجياً ، فوضع أذنه على خصاصه ، فلم يسمع
حركة ، فأخذ يقرعه قرعاً شديداً ، ويهتف باسم « مرغريت » مرة
واسم « برودنس » أخرى ، فلم يجبه أحد ، فقال في نفسه : « لعلها ذهبت
إلى بيتها في باريس لبعض شأنها واستصحت خادماتها ، ولا بد أن تعود
الآن . »

فجلس على صحرة أمام باب المنزل ينتظرها حتى مصت هدأة من الليل فلم
تعد ، فحدثه نفسه بالعودة إلى باريس للبحث عنها في مظان وجودها ، ثم
معه من ذلك خوفه أن يسلط في ذهابه طريقاً غير الطريق التي تسلكها في
عودتها ، فاستمر في مكانه يقعد مرة ويقوم أخرى ، ويقف حيّاً ويتمشى
أحياناً ، ويحدث نفسه بكل حديث يمر بخاطر الفيلق المرتاع إلا حديث خيانتها
وغنرها .

ولم يزل في حيرته واضطرابه حتى رأى جنوة الفجر تدب في فحمة
الظلام ، فسأ ظه ، وانتشرت عليه وساوسه وأوهامه ، وقال في نفسه .
« ما لمرغريت بد من شأن ، ولا بد لي من المصير إليها ، والطر في الشأن الذي
شغلها ! » وكان القلق والسهور قد أحذا مأخذاً من جسمه ونفسه من حيث
لا يشعر ؛ فمشى في طريقه إلى باريس يترنح ترنح الشارب الثمل حتى وصل
إلى منزل مرغريت وقد علا صدر النهار .

فرأى حارس المنزل قد استيقظ من نومه ووقف بفأسه على شجرة الحديقة
بشدب أغصانها ، فسأله عن مرعيت ، فقال : « إنها حضرت هنا بالأمس
في منتصف النهار ووراءها خادمتها تحمل حقيبة كبيرة فصعدت إلى المنزل
فلبثت فيه ساعة ثم نزلت ، وقد لبست ثوباً من أثواب الولايم ، فأعطتني
كتاباً ، وقالت لي إذا جاء هنا المسير أرمأ للسؤال عني فأعطه إياه ، ثم ركبت
عربتها هي وخادمتها وانصرفت . »
قال : « ألا تعلم أين ذهبت ؟ »

قال : « أحسب أني سمعتها تقول للحوذي عند ركوبها : إلى منزل المركيز
جان فيليب . »

فجمد أرمأ في مكانه جمود الصنم ، واستحال لونه إلى صفرة لموت ،
ومر بخاطره مرور البرق ذلك الكتاب الذي رآه في يدها بعد عودته إليها من
مقابلة أبيه ، فحرك الحارس مكانه وذهب إلى غرفته ، وعاد إليه بالكتاب ،
فتناول منه بيد مرتجفة ونشره وأمر نظره عليه إمرأاً فأحاط بما فيه للنظرة
الأولى ، فارتعد جسمه ارتعاداً شديداً ، وتراجع خطوة أو خطوتين إلى باب
القصر ، فأسند ظهره إليه وأعاد قراءته ، فإذا هو مشتمل على هذه
الكلمات :

« هذا آخر ما بيني وبينك يا أرمأ ، فلا تحدث نفسك بمعاودة الاتصال
بي ، ولا تسألني عن السبب في ذلك ، فلا سبب عندي إلا أني هكذا أردت
لنفسى ، والسلام . »

فعلق نظره بالكتاب ساعة لا يرفع طرفه عنه ، ولا يقرأ منه حرفاً ، كأنما
هو تمثال من تماثيل الحديقة ، وكان الحارس قد عاد إلى شجرته يشدب أغصانها
ويتعشى في صعوته إليها وانحداره عنها بقطعة من الشعر الغرامى يعجبه لحنها ،

وإن كان لا يفهم معناها .

فإنه كذلك إذ سمع صوت جسم تقبل قد سقط على الأرض ، فرمى
بفأسه وهرع إلى ناحية الصوت فرأى أرمأ صريعاً معترأ تحت عتبة الباب ،
ففرع فرعاً شديداً وطها الصرعة الكبرى ، فأهوى بأذنه إلى صدره ، فسمع
ما بقي من دقات قلبه ، فاطمأن قلباً وعمد إلى جرة بين يديه فأخذ ينضح بمائها
وجهه ، وبذلك براحة يده صدره وصدغيه حتى استفاق بعد قليل ، ففتح
عيديه فرأى الحارس جالساً بجانبه ، ورأى الكتاب لا يزال في يده . فدار بعينه
حول نفسه فمرت بخاطره في الحال ذكرى مصرعه القديم في هذا المكان عيه
مد خمسة عشر شهراً يوم ألقت مرعيت بنفسها عليه ورسمت على ثعره أول
قبلة من قبلات الحب ، فهاجته تلك الذكرى وصاح : « ما أبعد اليوم من
الأمس ! »

وأشأ يبكي بكاء الطفل الذي حبل بيه وبين ندى أمه ، حتى بكى
الحارس ليكانه وأقبل عليه بهريره عن مصابه ، ويهونه عليه حتى هدأ قليلاً .
فأمره أن يستدعى له عربة فعل ، فقام يتوكأ على يد الحارس حتى بلغها
فركب ، وقال للسائق : « إلى صدق تورين » فسارت به العربة إليه ، حتى
إذا لم يبق بينه وبينه إلا منعطف واحد مرت بجانبه عربة فخمة مرور البرق
الخاطف ، تحمل رجلاً وامراً لم يتبينهما للنظرة الأولى ، ثم راجع صورتهما في
خياله فإذا هما : « جان فيليب ومرعيت » ، وكانت مركبته قد وصلت به
إلى الفندق ، فدخل على أبيه هائماً غملاً ، فقال :

« ما دهاك يا بنى ١٩ »

قال : « قد غائنتني يا أبتاه . »

قال : « ذلك ما أنذرتك به قبل يا بنى . »

قال : وما تريد بها ؟

قال : وأسبب أن أسأثر بهذا السر لنفسى من حزن الناس جميعا حتى من حزنك .

عطر إليه أبوه بطرة الملم بما دار فى نفسه ولم يبادده ، وأعطاه صكوكا بالمال الذى أراد ، فأخذها وأرسلها إلى مرغريت وأرسل معها كتابا طويلا يختمه بهذه الكلمة :

« أما وقد عرفت أسى كنت أعيش مع امرأة عاهرة ساقطة لا عهد لها ولا دمام ، فيها هى ذى أجره ليلاليك الماضية مرسله إليك . »

ثم خرج ليهد نفسه للسفر ، فقتضى اليوم كله خارج الفندق ، ثم عاد إليه ذئب البهر ، فوجد فيه كتابا باسمه فقتض بجانحه بادا الأوراق التى أرسلها إلى مرغريت عائدة إليه كما هى وليس معها كلمة واحدة ، فحاول أن يعيدها إليها مرة أخرى ، فغمسه أبوه من ذلك وقال له : « قد وعدنى ألا تخالسى فى أمر فلا بد لك من الإذعان . » فادعى ثم ساروا معا تلك الليلة إلى نيس .

كذلك قضى الله أن يمتزق ذلك الصديقان الوحيان والمشتقان المخلصان ، فعاد الذى إلى أحضان أبيه ، وعادت الفتاة إلى حياتها الأولى التى كانت تأبأها الإباء كله ، ونجاها من الحروف الشديد ، وفى نفس كل منهما من الوجد بصاحبه والمسرة عليه ما لا تبيته (١) ، ولا تنقص منه السمورن والأغوام .

الاشتياء فى الدنيا كثير ، وأعطهم شقاء ذلك الحزين الضامر الذى قصت عليه ضرورة من ضروريات الحياة أن يهبط بالآلامه وأجرأه إلى قرارة نفسه فيودعها هناك ، ثم يهلق صوحا بالآلام من الصمت والكتمان ، ثم يصعد إلى الناس

(١) تبه : تختمه .

ثم انقضت النهار ، وجاء الليل فقصاه أرباب سافرا إلى محله براجع فنهزس حياته مع مرغريت صفحة صفحة ، ويستعرض فى نفسه جميع أطوارها وشؤونها فلم يبق حركة من حركاتها ، ولا كلمة من كلماتها ، ولا صورة من صور أعمالها ، كان يراها بالألمس حسنة من حسنات الإخلاص والولاء ، إلا رآها اليوم سبعة من سيئات الخديعة والمكر ، حتى وصل فى مراجعتها إلى الأسس والبريم الذى قبله .

فذكر عدم انتظارها إياه فى شرفة البيت كمادتها يوم عاد إليها من مقابلة أبيه ، وشدة احتفاظها بكتاب المركز فى يدها عندما دخل عليها غرقيا وضربها به ضئا شديدا ، ولم تكن تفعل ذلك من قول ، ولما أخذها من التيسر منه فى الحديث بعدما نفس عليها قصته مع أبيه ، وزعمها أنها مريضة خالوة لا تستطيع البقاء معه ، ولما لحها عليه فى صباح اليوم الثانى ولما حاض شديدا فى العودة إلى مقابلة أبيه واستعصائه ، وقولها إنها لا تكون راضية عن نفسها ولا هانئة بعيشها إن لم يكن أبوه راضيا عنه ، فاستنجد من هذا كله أنها مذ شمرت بغراخ يده من المال وأن أباه إمام أن يحول بينه وبينها وإما أن يقتل عليه الرزق فقيرا ، ملته واحتوته ، وفكرت فى سبيل الخلاص منه ، ولم تزل تنتظر ما يأتيها به القدر حتى أتاها بكتاب المركز فكان هو طريق خلاصها .

ولم يزل هائسا ما شاء الله أن يبرم فى تصوراته وأوهامه حتى غلبته حينا فنهج قليلا ، ثم استيقظ فى الصباح فدخل على أبيه فى محله ، وقال له : « لى عندك أسمة يا أباه لا أريد غيرها وأريد أن أرباعها منك بخصموى لك ونزولى على حكمتك أيد الدهر فيما سرى أو ساعى ، فبيل لك أن تبليغها ؟ »

قال : « وما هى ؟ »

قال : « أريد أن تعطبنى الساعة خمسة عشر ألف فرنك . »

ياش الوجه باسم الثغر متطلقاً متهللاً ، كأنه لا يحمل بين جنبيه همًا ولا كمدًا .

ذلك كان شأن « مرغريت » بعد عودتها إلى حياتها الأولى ، فقد أصبحت تعيش مع الناس بصورة غير الصورة التي تعيش بها مع نفسها ، أما حياتها مع الناس فحياة ضاحكة لاعبة مرحة وثابة ، تصبى المجمع والمخاض ، وتغلا الأنظار والأسماع ، فإذا ضمها غدعها وغلا لها وجه الليل مرت أمام عينها صورة تلك الساعات السعيدة التي قضتها بجانب « أرمان » .

ثم ذكرت أنها قد أفلتت من يدها إفلات الطائر من يد صائده ، وصارت بعيدة عنها بعد الشمس عن يد متاولها ، وأنها قد أصبحت تعيش بين أنوام لا تعرفهم ، ولا تجد في نفسها لذة الأنس بهم ، ثم لا تجد لها بدءًا من مآذقتهم والتعجب إليهم والتجمل لهم بما يريدون ويشتهون ، فتقبل الأقواء التي لا تشبهها وتعشق القامات التي لا تطيق رؤيتها ، وتشرب مع كل شارب ، والشراب يهرق أحشاءها ، وترقص مع كل راقص ، والرقص يمزق أوصالها ، وتصحك ضحكات السرور من قلب باك ، وتشد أناشيد الهاء من فؤاد محترق .

فكانها في يد الناس العود في يد المغنى يقطع أوتاره ضربًا ليطرب لثقاته ، أو الزهرة في يد المقتطف يعصر أوراقها عصرًا ليعم بشذاها ، فتبهجها ذكرى ذلك الماضي السعيد ، وهذا الحاضر الشقي ، فتطلق السبل لزفراتها وعبراتها يصعد منها ما يصعد ، وينحدر ما ينحدر ، حتى تشتمى نفسها ، فتقوم إلى خزنة ملابسها فتستخرج منها صورة تضعها بين سحرها ونحرها ، ثم تأوى إلى مضجعها فتجد برد الراحة في صدرها لأنها صورة أرمان .

ولم تزل تكابد من الشقاء في تلك الحياة الساقطة وآلامها ما لا طاقة لها

باحتال مثله ، حتى استيقظ في صدرها داؤها القديم بعدما نام عنها حبًا من الدهر ، فهرل جسمها وشحب لونها وغاض ماء ابتسامتها وانطفأ شعاع نظراتها ، وشعلها شأن نفسها عن شأن المركز فلم يلبث أن ملها وفارقها ، واستبدل بها أخرى غيرها . ثم اختلف عليها من بعده الأحلاء الرفقاء فكان شأنهم معها شأنه ، لا يلبث أحدهم أن يعرفها حتى يهجرها ؛ فكسدت سلعها في سوق الجمال ، وطمع فيها من لم يكن يطمع قبل اليوم في لثم مواطئ أقدامها ، وحلت منها المجمع والمخاض ، ثم خلت من ذكرها وحديثها ، وأغورها المال إغوارًا شديدًا ؛ فمدت يدها إلى ما كان باقيا عندها من جواهرها ولآلئها فباعته فلم يبق يديها ، فطلبت المعونة من كثير من أصدقائها الماصين ، فأرسل إليها قليل منهم القليل منها ، فلم يبق عنها شيئًا .

واختلفت إليها جرائد الحساب يطلب أصحابها سداد ما فيها ، فدافعهم عنها حينًا ثم عجرت ، فمحجروا على جميع مقتنياتها ودخائرها وأثاث بيها ورياشه ولؤلؤمها في مقاصاتها لئلا تصاعف حزنها ومرضاها ، وقصى على بقية ما كانت تصمره في نفسها من الأمل في الحياة والسعادة فيها ، فسببت العالم خيره وشره والحياة سعادتها وشقاءها ، وأصبحت لا تفكر إلا في أمر واحد تقوم وتقعده ليلها ونهارها ، وهو أن ترى أرمان ساعة واحدة قبل موتها ، ثم تذهب إلى ربها .

ولم تكن قد كتبت إليه قبل اليوم كلمة واحدة مد فارقها ولا كتب إليها ؛ فهبست تتحامل على نفسها حتى وصلت إلى منزلتها فكتبت إليه هذا الكتاب :

« تعال إلي يا أرمان راضيًا كنت أو غاضبًا ؛ فأبى مريضة مشرفة وأحب أن أراك قبل موتى ، لأفضى لك بسر الدنوب الذي أدبته إليك فيما مضى ،

والذى لا تزال واجدا على بسببه حتى اليوم ؛ فلعلك تمنو عني في ساعة
الأخيرة فيكون عموك ورضاك هو كل ما أتزوده من هذه الحياة لقبرى ،
واذكريا أرمان ، أن أول عاطفة جمعت بيني وبينك وألفت بين قلبي وقلبك ،
كانت عاطفة الرحمة والشفقة ، فها هي العنة المريضة المسكينة التى رحتها
بالأمس وعطفت عليها قبل أن تحبها تدعوك اليوم أن ترحمها وتعطف عليها ،
وإن تكن قد سلوتها . أما كتابك الذى كتبه إلى قبل سفرك فقد اغترت لك
كل ما فيه ، حتى قولك إنى كنت كاذبة فى حبك ، طامعة فى مالك ؛ لأنى
أعلم أن المرأة التى تكذب للناس فى حبها طول حياتها لا يمكن أن تجد من
يصدقها إذا صدقت فيه ، وعدل من الله كل ما صنع .

ثم لبثت تنتظر حضوره أياما طولا فلم يأت ، فأحزنها ذلك حزنا شديدا ،
وساء ظنها به ، ووقع فى نفسها أنه قد سلاها واطرحها ، وأصبح لا يهابها ،
ولا يبالي بحياتها أو مومها ، وسعادتها أو شقاتها ، وكانت مخطئة فيه ظنت .
فإن أرمان لم يطلع على الكتاب الذى أرسلته إليه منذ فارقها فى العام الماضى
وسافر إلى « نيس » ولم يستطع البقاء فيها إلا أياما قلائل ، ثم ملكه الضجر
وأحاطت به الوحشة ، وضائق فى وجهه مذاهب السلوى فاستأذن من أبيه
أن يسافر إلى بعض بلاد المشرق ترويحاً عن نفسه وتفرجاً من كرت ، فأذن
له فسافر إلى الإسكندرية فأقام بها بضعة أشهر كاتب أباه فيها قليلاً ، ثم تركها
وأخذ يتنقل فى أنحاء البلاد لا ينزل ببلد حتى يطور به الضجر إلى غيره ،
فانقطعت رسائله عن أبيه ، فأصبح لا يعلم مكان وجوده .

فلما أرسلت مرغريت إليه كتابها فى نيس قرأه أبوه وحفظه عنده ولم
يستطع أن يرسله إليه ، ومرغريت لا تعلم بشيء من ذلك ؛ فحزنت لحياة
أملها حزناً شديداً ، ودب اليأس فى قلبها ديب الموت فى الحياة ، ووقع فى

نفسها أنها ستخرج من الدنيا فارعة اليد من كل شيء حتى من هذه الامية التى
بقيت فى يدنا من بين جميع آمالها الضائعة .

فتكر شأها ، واستحالت حاتها ، ولحأت إلى صمت طويل لا تقول فيه
حبراً ولا شراً ، وأصبحت تنظر إلى نفسها وإلى ما يحيط بها من الأشياء كأنها
تنظر إلى شيء تنكره ولا تعرفه ؛ فرمما دخل عليها طبيبها وهى فى أشد حالات
ألمها فلا تشكو له ألماً ، أو سمعت صوضاء الدائنين وصخبهم فى فناء المنزل فلا
تسأل ماذا يريدون !

وكانت إذا شعرت بقليل من الراحة والسكون ركت عريتها إلى بوجيغال
فزارت البيت الذى قضت فيه أيام سعادتها الدامية ، وكان لا يزال بائياً على
الصورة التى تركه عليها يوم فارقه ومرت بعمره وقاعاته ، وجلست ن كل
مكان كانت تجلس فيه مع أرمان ، وأشرفت من كل نافذة كان يشرف منها
معه ، وقلت جميع آثاره ويقاها ، ولثمت الكأس التى كان يشرب بها ،
والهررة التى كان يحبها ، والقلم الذى كان يكتب به ، والكتاب الذى كان
يقرأ فيه .

فإذا مال منها التعب جلست على بعض المقاعد لتأخذ لنفسها راحتها ، برعما
طارها خيالها إلى ذلك العهد القديم ، فتمثل لها أن أرمان جالس تحت قدميها
يسرد عليها حادثة من حوادث طفولته فى نيس ، أو يشها ما يضره لها فى نفسه
من الوجد والغرام ، فتتسم لحديثه ابتسام السعيد الهائى ، وتستشعر فى نفسها
لذة لا يشعر بمثلها إلا المتقون فى جنات العيم ، ثم تفتح عيناها فلا ترى أمامها
غير الوحشة والسكون ، والوحدة والانعزاد ، فتبكي ما شاء الله أن تفعل ،
ثم تعود إلى بيتها فى باريس ، فتجلس على كرسيها بجانب منضلتها وتناجي
أرمان فى مذكراتها بجميع ما تحدثها به نفسها كأنه حاضر بين يديها يرأما
ويسمعها !

فلما قرأتها علمت ماذا يريد من تلك المقابلة ، وشعرت بما وراءها ، بل علمت بما دار بينك وبينه من الحديث ، وأنت امتعت عليه حتى يحس منك ، فحاول أن يدخل عليك من بابي ، فحدثني نفسي أن أرفض مقابلته ، وأن أكشفك بكل شيء ، ثم استحييت من نفسي ، وأكبرت أن يعتمد علي رجل شريف كأنيك في كتابان سر بسيط كهذا السر فلا يمدني عد ظه ، وطمعت في أن أبال مه عد المقابلة ما يطمع أن يباله مني ، فكتمتكم أمر الرسالة ، وكتمتكم ما في نفسي منها . ولم أكن كاذبة في شكائي وألمني حينما قلت لك في تلك الليلة : « إنني لا أستطيع البقاء بجانبك » . وسألتك أن تقودني إلى محدي ، فقد قصيت في فراشي بعدما فارقتك ليلة لم أقض مثلها في جميع ما مر لي من ليالي الموم والأحزان حتى أصبح الصباح فألححت عليك أن تذهب لمقابلة أيك ، وأنا أعلم أنك إن ذهبت إليه لا تراه ، ولا تتسمع عقابله إن رأيته ، ولكني حسنت أن يزورني فيراك عندي فأصغر في عينيه ، ولا أشد علي من ذلك .

وما هي إلا لحظات قليلة حتى وصل إلى بوجيفال في الموعد الذي ضربه في كتابه ، فاستأذن علي فأذنت له ، فدخل فرأيت في عينيه جمة من الغضب تلتهب التهابا ، فلم أحفل بها ، ودعوته للجلوس فلم يفعل ، ولم يجيني بيده ، ولا بلسانه .

« وكان أول ما استقبلني به قوله : ماذا تريد من أن تصنعني بولدي أيتها السيدة ؟ وظل ناظرا إلي نظرا جامدا ساكنا لا يطفرف ، ولا يتخلج ! فعجبت لدخله الغريب ، ونظراته المترفعة ، ولهجته الجافة الخشنة ، وامتعضت في نفسي امتعاضا شديدا حتى كدت أقول له ، ولا أكتمك ذلك : تذكر يا سيدي أنك في منزلي ، وأنني لم أدعك إلى زيارتي ، بل أنت الذي دعوت

مذكرات مرغريت

١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٠

« أرماني :

« لم تكتب إلي ولم تأتني ، كأنما ظننت أنني أريد أن أستعيد معك عهد الماضي ، وأهين أنا من ذلك العهد ! فلو رأيت امرأة ذاتة مدبرة لا تصلح لشأن من شؤون الحياة ، ولم يبق فيها من صورها الماضية إلا كما بقي من الزهرة الساقطة عن غصنها بعد ما عصفت الريح بأوراقها ، وكل ما كنت أريده منك ، أن أراك بجانب فراشي في ساعتى الأخيرة ، لأعتذر لك عن ذنبي الذي أذنبته إليك ، ثم أنظر إليك نظرة وداع أغمض عليها جفني وأذهب بها إلى قبري .

« ما أنا بخاتمة يا أرماني ولا حادثة ، فإن الرسالة التي رأيتها في يدي يوم عدت إلي من مقابلة أيك ليست رسالة المركيز كما ظننت ، بل رسالة أيك نفسه وصلت منه قبل وصولك إلى بوجيفال بساعة واحدة ، وهذا نصها الذي لا يزال عالقا بلهني حتى الساعة :

« سيدتي :

« أريد أن أقابلك غدا في منزلك في الساعة العاشرة صباحا في شأن خاص لي وبك ، وأريد ألا يكون « أرماني » حاضرا تلك المقابلة ولا عالما بها ، ولا بأني أرسلت هذه الرسالة إليك ، ولي من حسن الرأي فيك ما يطمعني في أن يكون ما سألتك إياه سرا بيني وبينك حتى نلتقي . والسلام »

دومال

نفسك بهمسك .

ثم ذكرت مكانه منك فأمسكت عن كل شيء حتى عن الجوب على سؤاله ، فمشى يضرب الأرض بعصاه وبقدمه حتى دنا مني ، وألقى علي تلك النظرة التي اعتاد الأشراف المترفعون أن يلقوها في طريقهم على وجوه النساء العاهرات ، وقال : لقد أنفق ولدي عليك جميع ما كان بيده من المال ، وكان في يده الكثير منه ، ثم جميع ما أرسلته إليه بعد ذلك ، وقد أرسلت إليه فوق طاقتي ، فلم يبق في استطاعته أن يملك بأكثر مما أمك ، ولا في استطاعتي أن أستزل له من السماء ذهباً يطره عليك ، فدعيه وشأنه ، فالبك مملوء بالأبناء الذين لا يحتاج آباؤهم إليهم والذين لا يحتاجون إلى أنفسهم . أما أنا فأبني في حاجة إلى ولدي ، لأنني لم أرزق ولداً سواه ، ومن كانت بيده هذه الثروة من الجمال التي تملكها لا يضيق به من مذهب من مذاهب العيش ، ولا يتلوى عليه مأرب من مأرب الحياة .

فسرت كلماته في نفسي مريان الحمى في عظام المصوم وخيل إلي أن هذا المائل أمامي لا يحدثني ، إنما يجرعني السم بيده تجرباً ، وشعرت بذلك لم أشعر بمثلها في يوم من أيام حياتي ، إلا أنني تجللت واستمسكت ورددت نفسي على مكروها ، وقلت له بصوت هادئ ساكن لا يمازجه غضب ولا نزق : لا يا سيدي ، نعم إنني أحب ولدك ، ولكنني لا أطمع فيه ، ولو كان الذي يعينني منه الطمع في ماله لفارقه منذ ثلاثة شهور ، أي منذ خلت بيده من المال وأصبح لا يجد السبيل إليه بحال من الأحوال ، بل لفارقه قبل ذلك لأن الدين لا يزالون يسألونني في نفسي من أشراف هذا البلد ونبلائه منذ اتصلت به حتى اليوم أفضل منه وأكثر رغماً . على أن ولدك لم ينفق علي من هذا المال الذي تذكره إلا النزر القليل ، وربما أنفق باقيه على نفسه ؛ ولو استطعت أن

أرفض ذلك القليل وآباء لفعلت ، ولكنني كنت أضن به أن يداخل نفسه ما يربها أو يؤلمها ؛ فقبلت منه هداياه الصغيرة التي كان يقدمها إلي من حين إلى حين إرضاء عليه ، وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها ، ولو أن ما كان بيده من المال انتقل إلى يدي ، كما تقول ، لأصبحت عنية موفورة ، لأحمل هذا من هموم العيش ، ولا أعاني من بأساء الحياة وضرائها ما أعانيه اليوم !

فإنني ، لو تبينت أمري ، امرأة فقيرة معورة لا أملك من متاع الدنيا إلا حلاى ومركتي وأثاث بيتي ، ولينها كانت خالصة لي ، فقد امتدت يد الضرورة إليها مد عهد قريب ، فأصبح الكثير منها سلعة في يد المرائين ، ولا أعلم ما يأتي به العد . وإن أبيت إلا أن تعرف ذلك بمسكك فسأطلعك على ما كتمته عن الناس خبيئاً حتى عن ولدك . ثم قمت إلى خزانة أوراق ، فحسنتها بالصكوك والوثائق المشتملة على بيع ما بعث من جواهرى وحيولى وأثاث بيتي ورهن مارهستها ، فقبل يديها بين يديه ساعة ، ويتأمل في تاريخها طويلاً ثم طواها وأعادها إلي مطرقاً صامتاً لا يقول شيئاً . ومد يده إلى كرسى بين يديه فاحتدبه إليه وجلس عليه معتمداً برأسه على عصاه ، وقد هدأت في نفسه تلك الثورة التي كانت تضطرم وتعلج منه دحو له ، وطار من وجهه تلك العبرة السوداء التي كانت تظلمه من قبل . فعدت إلى حديثي معه أقول : « على أسي يا سيدي غير شاكبة ولا ناقمة ، فقد مر في من ثوب الأيام وأرزائها ما يحا من نفسي كل شهوة من شهوات الحياة وأنسالي جميع مظاهر الدنيا ومفاخرها ، فأصبحت لا أبالي بما تأتي به الأيام ، وسواء لدي الفقر والعس ، والخلو والعطل ، وسكنى القصر وسكنى الكوخ ، وركوب المركبة وركوب النمل .

وكل ما أرجو من حياتي وأضرع إلى الله وإليك فيه ، أن أرى أرومان

يقاسمني هم الحياة وبؤسها ، ويميتني على شدةها ولأوائها حتى يقضى الله في أمري بما هو قاض

• فإن كان في الأجل فسحة فضيتها في شكرك وحمدك ، والإخلاص لك في سرى وعلى ، وإن كانت الأخرى كان آخر ما أنطق به في ساعتى الأخيرة أن أدعو لك الله تعالى صارعة مبتلة أن يبارك لك في نفسك ، وفي أهلك ، وأن يسبل منزه الصاق عيك في حاصرك ومستقبلك !

• ثم جنوت بين يديه وتعلقت بأهداب ثوبه ، وقد عجزت في تلك الساعة عن أن أمدك من دموعي ما كنت مالكة من قبل ، فظلمت أبكى ، وأقول : رحماك يا مولاي ، إننى امرأة بائسة مسكينة قد قضت على بعض ضرورات العيش في فائقة حياتى أن أقف على حافة تلك الهوة التى يقف على رأسها النساء الخائعات ، فسقطت فيها كارهة مرغمة ، ثم أردت بمسى على الرضا بتلك الحياة التى قدرها الله لي فم أستطيع ، فأصحت في مرلة بين المرلتين ، لا أنا شريفة أطمع بعيش النساء لشريفات ، ولا ميتة القلب أسعد سعادة الغنيات الساقطات . وقد وجدت في ولدك الرجل الوحيد الذى أحببى لنفسى ، ومنحى من وده وإخلاصه ما صر به على الناس جميعاً ، فأنسيت به أسأ أسأنى سقوطى وعارى ، وحبب لى الحياة بعدما أبغضتها وبرمت بها ، وكذت أقضى على نفسى بالخلاص منها ، فلا تحرمنى جوارى ، ولا تفرق بينى وبينه ؛ فإنك إن فعلت أشقيتى وبرحت لى ، وملأت حياتى همًا وكملاً ، وأنت أجل من أن ترصى لنفسك بأن تبنى سعادتك وهاءك على شقاء امرأة مسكينة مثلى .

• ماذا يكون مصيرى غداً إذا أصبحت وحيدة منقطعة في هذا العالم لا صديق لى ولا معين ؟ أعود إلى حياتى التى أبغضتها وأخشأها ، فأعود إلى

جرائسى وآثامى ؟ أم أقتل بمسى يبدى فرازا من شقاء الدنيا وبلائها ، فأختم حياتى بأقبح مما حتم امرؤ به حياته ؟ لا أستطيع واحدة من هاتين ، بامدد إلى يدك اليصاء ، وأتقضى من هذه الهوة العميقة التى لا يستطيع أحد أن يفتدى منها سواك .

• أنا أعلم أنك في حاجة إلى ولدك ، وأنت أولى به من كل مخلوق على وجه الأرض ، ولكنى أعلم أنك شغوف رحيم لا تأنى أن تنصدق على امرأ مريضة بائسة مثل بساعات من السعادة تتعلل بها في مرضها الذى تكايدته حتى يوافقها أجلها . لا أسألت ياسيدى مالا ولا سباً ولا عرضاً من أعراض الحياة ؛ بل أسألك أن تأذن لأرمان بالبقاء معى ؛ فإن في بقاءه بقاء حياتى وسعادتى ، فتصدق بهما على إنك من المحسنين .

• وهما شعرت كأنه يتحرك في كرسيه فحقق قلبى خفقاناً شديداً ، ثم رجع رأسه ونظر إلى نظرة أهدأ باراً واقصر شعاعاً من بطرته الأولى ، وقال : ومن أين تعيشان ؟

• قلت : عندى بقية من جواهرى وحلاى سأبيعها وأعيش بشئها معه في راوية من زوايا باريس عيش الفقراء الثقلين ، لا يراى أحد ، ولا يشعر بوجودنا شاعر ، وحسبنا الحب سعادة نعى بها عن كل سعادة في هذا العالم وهناء !

• قال : ذلك هو الشقاء بعينه ؛ فإن الحب نبات ظلى تقتله شمس الشقاء الحارة ، وكل سعادة في العالم غير مستمدة من سعادة المال أو لاجئة إلى طلاله فهى كاذبة لا وجود لها في سوانح الخيال .

• أننا اليوم سعيدان لأن في يديك مالا تعيشان به ، ولأنكما تسكنان هذا المنزل البديع ، فوق هذه الهضبة العالية ، بجانب هذه البحيرة الجميلة ، فإنما

خلت يديها من المال ، وحرمتها هذا النعيم الذي تمنعان به شقيتنا وشعلكما شأن نفسيكما عن شأن الحب وللثالثه ، وسرى إلى نفسيكما الصجر والمثل ، وربما امتدت تلك السامة بينكما إلى أبعد غابتها .

« إن للحب فنوناً من الجنون ، وأقبح فنونه أن يعتقد المتحابان أن حبهما دائم لا يتغير حوادث الأيام ، ولا تنال منه الصروف والغير ، ولو عدلا لعلمنا أن الحب لون من ألوان النفس ، وعرض من أعراضها الطائفة ، تأتي به شهوة وتذهب به أخرى ، ولا يذهب به المثل مثل الفاقة إذا اشتدت واستحكمت حلقاتها ، فإن النفس تطلب حياتها وبقائها ، قبل أن تطلب لذائذها وشهواتها !

« أنا أعلم من شأن ولدي يا سيدتي ما لا تعلمين ، وأعلم أنه لا يستطيع أن يعيش هذه العيشة الثكناء التي تظنين ، وهو حتى فقير لا يملك من الدنيا إلا قطعة صغيرة من الأرض ورثها عن أمه لا تقى عنه ولا عنك شيئاً . وما أنا بذي ثروة طائلة أستطيع أن أحفظ له بها زمناً طويلاً هذا العيش السعيد الرغد الذي يعيشه اليوم في باريس ، فلم يبق بين يديه إلا أن يعيش بمالك ، وهو ما لا أرضاه له ولا يرضاه لنفسه . واسمحي لي يا سيدتي أن أقول لك : إن جميع مصائب الدنيا وأرزائها أهون عليّ وعليه من أن يقول الناس إن خليلة أرماني دوقاً قد باعت جواهرها وحلاها التي أهداها إليها عشاقها الماضون لتتفق ثمنها عليه .

« ساعيني يا بيتي ، واغتفري لي حذقي وخشونتي ، فإن شديداً جدنا على والد شيخ مثل أن يرى ولده الذي وضع فيه كل آماله يته بهوى أمام عينيه في هذه القوة الساحقة التي لا تقرر لها حوز أن يطير قلبه خوفاً واهلاً .

« إنني إذ أعرفك أنسيني ونسيت أختي ، فلا يذكرني ولا يذكرها ، وقد

مرصت منذ شهور مرضاً مشرقاً فكبت إليه أن يأتي ليعودني فلم يفعل ، ولم يرد على كتابي ، أي أنني كنت على وشك أن أموت ولا أراه ، ولو تم ذلك لذهبت إلى قبري بحسرة لم يحمل مثلها في صدره راحل عن الدنيا من قبل !

« أنت صديقة يا سيدتي في قولك إنه لم يقع عليك جميع ما كان بيده من المال ، لأني علمت بالأمر أنه قامر منذ عهد قريب ، وحسر في مقامته كثيراً ، كما علمت أنك لا تعلمين شيئاً من ذلك فما يؤمسي إن أنا تركته في هذا البلد ألا يستمر في هذه العواية الجديدة التي حطت الخطوات الأولى في طريقها ، ولا يحسر في بعض مواقفه خسارة عظيمة لا أحد لي بدأ من أن أحد بيده فيها ، فأقدم إليه دحر شيخوحتي ، ومهر ابنتي ، مهلك نحن الثلاثة في يوم واحد ؟

« من أين لك يا بيتي أنه إن طال عهده بك لا يملك ، ولا تمتد عيه إلى امرأة سواك ، فتكون فجيعتك فيه عدداً شراً من فجيعتك فيه اليوم ؟ ومن أين له أنك لا تضيقين ذرعاً يوماً من الأيام بعيشة الوحشة والوحدة فتحنين إلى حياتك الأولى ، حياة الأنس والاجتماع ، والصوصاء واللجب ، وهو حتى عبور مستطار ، فربما أنفت نفسه أن يزاحمه فيك مزاحم ، وربما امتدت يده بشر إلى ذلك الذي يزاحمه ، فتازلا ، فأصابته من يد مازله صربة تقضي على حياته وتفجعني فيه ؟

« كيف يكون موقفك يا سيدتي عما إن بعد فيه هذا السهم من الفصاء أمام هذا الأب الناكل المسكين إذا جاءك يسألك عن دم ولده ؟ وكيف تكون آلام نفسك ولو اعجبها أمام مشهد بكائه وتفجعه ؟

« ثم ارتعش ارتعاشاً شديداً ، وظل نظره حائراً مضطرباً كأنما يحيل إليه أنه يرى أمام عيبيه ذلك المنظر الذي يتحدث عنه ، ثم سكن قليلاً ، وبصر إلى نظرة هادئة مملوءة عطفاً وحناناً ، وأنشأ يقول :

« مرغريت ، أنت أعظم في عيني مما كنت أظن ، وأكرم نفساً من أولئك النساء اللواتي يزعمن أنك واحدة منهن ، وقد وجدت فيك من فضائل النفس ومزاياها ما لم أجده إلا قليلاً في أفئدة الرجال ، وأقل من القليل في فضليات النساء ، ولو قسم الشرف بين الناس على مقدار فضائلهم وصفاتهم لكان نصيبك منه أوفر الأنصبة وأوفاهها .

« لا أنسى لك يا مرغريت ما دمت حياً كتابك أمر الكتاب الذي أرسلته إليك ، واحتفاظك بسره في ساعة تنفرج فيها الصدور عن مكنوناتها ، ولا مسكوتك وإغضاءك — وأنت في منزلك ، وموضع أمرك ونهيك — أمام حديق وعشونتي وجنون غصبي ، ولا بذلك ما بذلت من ذات نفسك وذات يدك لولدي — من حيث لا يعلم — وفاء له وإبقاء على عزة نفسه وكرامتها !

« لقد كانت ضحيتك التي قدمتها لولدي بالأمس عظيمة جلداً ، واليوم جئتك أطلب إليك أن تقدمي ضحية أعظم منها لابنتي ولا معتمد لي أعتمد عليه في تلبية رجائي عندك إلا شرف نفسك وفضيلتها .

« لقد تركت « سوزان » ورائي تتقلب على فراش المرض ، وتكابد منه فوق ما يحتمل جسمها الناشئ الغض ؛ لأن خطيبتها الذي تحبه حباً جماً قد هجرها منذ شهرين فلا يزورها ولا تراه ، وقد كنت أجهل قبل اليوم سبب مرضها إلا الظن والتقدير حتى سهرت بجانب فراشها ليلة كانت الحمى فيها قد نالت منها مثلاً عظيماً ، ووصلت بها إلى درجة الخبل والهذيان ، فسمعتها تنهف باسم خطيبتها مرات كثيرة ، وتبكي كلما جرى ذكره على لسانها كأنها حاضرة مستفيضة ، فعلت موضع دائها ، وذهبت في اليوم الثاني إلى والد ذلك الخطيب أسأله عما راب ولده من أمر ابنتي ، وقطعه عن زيارتها ، فذكر لي سبباً غريباً لك فيه يا سيدتي بعض الشأن ، فإن أذنت لي حدثتك حديثه .

« فحق قلبي خفقاناً شديداً ، وأحسست بالشر يندنو مني رويداً رويداً ، إلا أنني تماسكت ، وقلت له : نعم آذن لك يا سيدي . لقد أجبني الرجل على سؤاله بقوله : إن أسرتي أسرة شريفة لا تصاهر إلا أسرة شريفة مثلها من جميع وجهها ، وقد عرفت أسلوب المعيشة السافلة التي يعيشها ولذلك في باريس ، إنه يعاشر منذ عهد طويل امرأة مومساً معروفة هناك معاشرة تهتك وتبذل يشهدها الناس جميعاً ، ولا أسمح لنفسى أن يكون مثل ولذلك في تبذله واستهتاره ، وصغر نفسه وقسوتها (١) صهراً لولدي ولا عاراً على بيتي .

« فاستقبلت حشوته وجماعه بصبر واحتفال ، لأن الخوف على ابنتي شعلني عن العصب لنفسى ، وقلت له : أوافقك بما تقول ؟ فأدلى لي بما أقصى ، فلم أر بداً من أن أسلم له بصواب ما فعل ، وسأنته أن لا يبيت في أمر الخطيبة شيئاً حتى أسافر إلى باريس وأعرد مها .

« ذلك ما حملني على المجئ إلى باريس . وهذه هي قصتي التي جئت أعرضها عليك ، وأنتظر حكمك فيها ، وقد كتمتها عن الناس جميعاً حتى عن ولدي أرماني ، فانظري ماذا تأمرين ؟

« وها أطرق برأسه طويلاً ، ثم رفضها ، فإذا عبرة تترقق في عييه ، وإذا هو يحاول الكلام فلا يستطيعه ، فرحمته مما به ، وأعظمت مصابه حتى نسبت مصابي مجابهه ، وساد السكون يساً ساعة لا يقول لي شيئاً ، ولا أدرى ماذا أقول ، حتى هداً نأثره قليلاً ، ومد يده إلى يدي فأحدها بين دراعيه ، وعاد إلى حديثه يقول :

« مرغريت ، إن حياة ابنتي بين يديك ، فامنحيني إياها تتخذني عدي

(١) الفسولة : الانعطاف وضعف المرونة .

يبدأ لا أنساها لك حتى الموت .

« إننى لا أستطيع أن أراها تموت بين يدى . ولو عم ذلك لمتُ على أثرها حزناً وكملاً ، وضعتاً في يوم واحد قبر واحد ، لقد رأيت مصرع أمها منذ خمس سنين ، ولا يزال أثره باقياً في نفسى حتى اليوم ، ولا أستطيع أن أرى هذا المشهد مرة أخرى في ابتها وصورتها الباقية عندي من بعدها .

« إننى أحبها حباً جماً ، ولا أستطيع أن أراها في ساعة من ساعاتها حزينة أو مكتئبة ، فكيف أن أراها تعالج سكرات الموت !

« إنك لا تعرفها يا مرغريت ، وأعتقد أنك لو رأيتها لأحببتها كما أحبها ، ولرحمتها كما أرحمها ، ولقديتها بما تستطيعين راحة بها وإشفاقاً عليها .

« إنها جميلة جداً ، وبياض مثل الكوكب ، وطاهرة طاهرة الملك ، وغريبة غرابة الطفل ، فاسمحي لهذه الحياة العضة الزاهرة بالبقاء والسعادة ، فإنها لا تستحق الشقاء .

« إنها اليوم تعيش بالأمل الذى أودعته قلبها يوم سفرى ، فإن عدت إليها بالحية عدت إليها باليأس القاتل والقضاء الازل !

« إنك تحبين أرمان يا مرغريت ، وقد أصبحت أعتقد أنك مخصصة في حبه إخلاصاً عظيماً ، فاصنعي ما يصنع المحبون المخلصون ، وضحي حبك من أجله ، ومن أجل مستقبله ، فإذا تفعل ذلك من أجله ، فاعلميه من أجل .

« لقد قلت لى إنه الرجل الوحيد الذى أحبك لنفسك أكثر مما أحبك لنفسه . فبالله هذا الحب ، بل كوني خيراً منه فيه ، وليكن عزاءك عما تلاقيه بعد فراقه من حزن وألم أنه قد أصبح سعيداً من بعدك ، وأنت قد أنقذت من يد الموت فتاة مسكينة ، ومن يد الشقاء شيئاً حزيناً . وهنا اخفق صوته بالبكاء فهبط على كرسيه بين يدى ، وقال بعمّة المشرف المحتضر :

« أرحمى يا مرغريت ، واشفقى على ضعفى وشهونى ، وتصدق على بمستقبل ولدى ، وحياة ابنتى .

« ثم لم يستطع أن يقول بعد ذلك شيئاً ، فالتقى رأسه على كرسيه الذى كان جالساً عليه وانفجر باكياً .

« آه لو رأيته يا أرمان في موقفى هذا ، ورأيت لوعنى ونعجى ودموعى المبهمة على حدى إهمار الدمية الوطءاء رحمة بأكبك وإشفاقاً عليه !

« لقد كان يتكلم فتسيل مدامى مع حروفه وكلماته ، كأنها هو ينشد مرثية محزنة ، أنا المبكية عليها فيها !

« إن العظيم عظيم في كل شيء حتى في أحراره وآلامه ، فلقد كان يحيل إلى وأنوك يبكى بين يدى وينحب أن كل دموعه من دموعه تسترل عصب الله على الأرض ، وكل رفرة من رمراته تلتهب بها آفاق السماء .

« لقد أكبرت في نفسى جداً أن يحثو مثل هذا الشيخ الشريف الطاهر بين يدى فتاة ساقطة مثل ، واستحييت من ذلك حياء نعتت معه أن أو انشقت الأرض تحت قدمى فصيحاً فيها أبد الدهر .

« وبينما هو مطرق صامت أخذت أفكر فيه ، وفي مصابه ، وفي قصته التى قصها على ، وفي الشأن الذى لى فيها ، ففعلت أنى قد أصبحت شؤماً على هذه الأسرة السعيدة جميعها ، أيها وبيها وابنتها ، ففعلت بمسى على ، وسمح مطرها في عيسى ، حتى حيل إلى أنها لو كانت حاضرة بين يدى لرميت بها من حائق إلى حيث لا يجمعى وإياها مكان بعد اليوم

« ثم قلت في عيسى : إن حياتى انماصية التى قصتها في الشرور والأثم قد قطعت على طريق الشرف ، فلاحق لى أن أطمع في حياة الشرفاء ، ولا أن أدعهم سعادتهم وهناءهم ، وإن الإثم الذى اقترفته في ماضى قد أتمته

وحدى ، فلا بد لي أن أستقل بعينه دون أن ألقيه على عاتق أحد غيري ، فإن كان مقدراً علي أن أموت موت النساء الساقطات ؛ فذلك لأنني امرأة ساقطة ، أو ألاق في مستقبل حياتي شقاء وآلاماً ؛ فذلك لأن مستقبل نتيجة الماضي وغمرته الطبيعية .

« هنا ذكرت لك يا أرمان ، وذكرت فراقك وكيف أستطيعه ، وذكرت أما التي سأتولى قتل نفسي بيدي ؛ لأن الطريق التي لا طريق غيرها إلى بلوغ رضا أبيك وموافاة رغبته ، أن أقاطعك وأعاضبك ، وأطهر أمامك بمظهر الحائنة الفادرة . وربما اضطررت إلى الاتصال بفورك على مرأى منك ومسمع ، حتى تنصرف عني انصراف يائس مغلوب على أمره من حيث لا يكون لأبيك مدخل في ذلك ، فأكون قد جمعت على نفسي بين فراقك وغضبك في آن واحد . وذكرت أن لا بد لي متى فارتك أن أعود إلى حياتي الأولى التي أنهضها وأمتها ؛ لأن الدوق موهان لم يستطع أن ينسى ذنبي الذي أذنبته إليه حتى اليوم ، ولأن في حاجة إلى بسطة من العيش أستعين بها على معالجة مرضي ووفاء ديني . فدارت هذه الخواطر في رأسي ساعة ، وطالت دورتها حتى كادت تعلبني على أمري ، ثم وقع نظري على وجه أبيك المنضجل بدموعه فجلدت وجمعت أمري ومضيت قدماً لا ألقى على شيء مما ورائي .

« لقد كان شديدًا علي جدًا أن أفارقك يا أرمان ، ولكن كان أشد علي منه أن أرى أباك يبكى بين يدي ، وأن أكون سبباً في موت أحتك أو شقاتها .

« إنني أحب يا أرمان ، وأعترف آلام الحب ولوعته في النفوس ، ولقد كان يخيل إلي وأبوك يمدني عن أحتك وشقاتها أنني أراها من خلال دموعي طريحة فراشها ، وهي تمد يدها إلي ضارعة متوسلة وتقول : أغفني يا سيدي وارحمي ضعفي وشبابي ، فأجد لكلماتها من الأثر في نفسي ما لا يستطيع أن

يشعر به إلا من كان له شأن مثل شأني .

« إنني حرمت في مبدأ حياتي السعادة الزوجية وهاءها ، ولقيت بسبب ذلك من الشقاء ما لا أزال أبكيه حتى اليوم ، فلا يبيح حربي ، ولا يستثير كامن لو عني مثل أن أرى بين الناس فاة محرومة السعادة مثل .

« إنني أحب وهي تحب ، ولا بد لواحدة منا أن تموت فداء عن الأخرى ، فأموت أما فداء عنها ، لأنها أحتك ، ولأنها لم تقترف في حياتها ذنباً تستحق بمسبه الشقاء .

« وكنت كلما ذكرت أنها ستصبح سعيدة هائلة من بعدي ، وترأى لي شحها ، وهي لاسعة ثوب عرسها الأبيض الجميل ، وسائرة إلى الكنيسة بجانب خطيبها ، طار قلبي فرحاً وسروراً وهال علي كل شيء في سبيل عطفها وهائها .

« نعم إن الضربة التي سأستقبلها شديدة جدًا ، لا يقوى عليها قلبي ، ولكني سأحملها بصبر وسكون ؛ لأن أباك سيصبح راضيًا عني ، ولأنك ستعلم في مستقبل الأيام سر نصحي ، فتحبني فوق ما أحببني أو لأن أحتك ستصبح سعيدة معبظة بعيشها وحبا ؛ وسيكون اسمي بين الأسماء التي تدعو لها الله في صلواتها بالرحمة والرضوان .

« جاءت الساعة التي أقول فيها لأبيك كلمتي الأخيرة ، ولقد كانت شديدة هائلة أسأل الله أن يغفر لي بما لقيت فيها من الآلام ماضي ودون وآتيا ، كما أسأله ألا يدين مرارتها قلب امرأة على وجه الأرض من بعدي .

« فمت من مكاني كأنني أنتزع نفسي من الأرض انتزاعاً ، ومشيت إلى أبيك كما يمشي الخائن ^(١) إلى مصرعه حتى جنوت بين يديه ، وأخذت

(١) الخائن : الذي حاد هلاكه .

بيده ، فاستفاق من غشيته ونظر إلى ذاهلاً مشدوها ، فقلت له : أنتعقد يا سيدى أننى أحب ولدك ؟ قال : نعم . قلت : حباً هو متبى ما تستطيع امرأة أن تحمّل ؟ قال : نعم . قلت : وأن هذا الحب هو كل آمالى وسعادتى ، وما أملك فى الحياة ؟ قال : نعم يا بنتى . قلت : قد ضحيته من أجل ابنتك فعد إليها وبشرها بمسعادة المستقبل وهنائه ، وقل لها : إن امرأة لا تعرفك ، ولم ترك فى يوم من أيام حياتها ، ولكنها تحبك وتشفق عليك ، تموت الآن من أجلك ، فاسألى الله لها الرحمة والعفوان .

فقبل وجهه بشراً وسروراً ، ولم يدع كلمة من كلمات الشكر والثناء إلا أفضى بها إلى ، فأنسأى سروره واعتباطه ألم الضربة التى أصابت كبدي ، واستحال حزنى واكتئافى إلى راحة وسكون ، فحمدت الله على أن لم يرفى وجهى فى تلك الساعة ما ينقص عليه سروره واعتباطه .

وهنا شعرت بحركة عذ باب الغرفة فالتفت فإذا « برودنس » تشير إلى بيدها . فذهبت إليها فأعطتنى كتاباً جاء به البريد فقرأت عنوانه ، فإذا هو بخط الماركيز « جان فيليب » فعلمت ما يتضمنه قبل أن أراه ، ووقع فى نفسى أن الله قد لوحى إلى بما أفعل . فذهبت مسرعة إلى غرفة مكتبى أخاف أن يعرض لى فى طريقى ما يرعرع عرىنى ، وهناك قرأت الكتاب وكنت لصاحبه فى بطاقة صغيرة هذه الكلمة : « سأعشى عذك الليلة . » ثم أعطيتها برودنس لتلقها فى صندوق البريد .

وعدت إلى أبيك فوجدته حيث تركته ، فقلت له : إن أومان لا يعم شيئاً من أمر زيارتك هذه فاكتمها عنه حين تلقاه ، وسأكتب إليه كتاب مقاطعة لا يشك فى أنى صاحبة الرأى فيه ، وأن لا يد لك فيما كان ، وسيعلم اليوم أو غداً أنني قد اتصلت برجل غيره . فبرى أننى قد ختت وعذرت

بعمده ، فلا يجد له بهذا من أن يسافر معك قاطعاً رجاءه منى ، وربما تألم هذه الصدمة بضعة أيام أو بضعة أسابيع فلا تحفل بذلك ، فسيبلى حتى فى قلبه ، كما يبلى كل حب فى كل قلب .

غير أن لى عذك طالبة واحدة لا أريد منك سواها ، فهل تسمح لى بها ؟ قال : نعم أسمح لك بكل شئ . قلت : إلى مريضة مشرفة ، وإن العلة التى أكابدها كثيراً ما يتحدث الناس عنها أنها لا تترك صاحبها طالت أم قصرت حتى تذهب به إلى قبره ، فكل ما أسألك إياه أن تأود لأرمان فى اليوم الذى تعلم فيه أسى قد أصبحت على حافة قبرى أن يأتينى لأراه وأودعه الوداع الأخير ، وأعتذر له عن ذنبى الذى أذنبته إليه حتى لا أخسر حبه واحترامه حية وميتة . فتنظر إلى نظرة دامعة ، وقال : وارحمناه لك يا بنتى ، إننى أعدك بما أردت . وأسأل الله لك الشفاء والعراء . ثم حاول أن يحرص على شيئاً من المعونة فأبيت ذلك إباء شديداً ، وقتت له : أسى لم أبع نصسى يا سيدى بيعاً ، بل وهبتها . فأخذ رأسى بين يديه وقبلنى فى جبينى قبلة كانت خير جزاء لى على توضيحى التى ضحيت بها وودعنى ومضى .

فما ابتعد إلا قليلاً حتى قمت إلى خزانتى ، فجمعت ثيابى وما بقى لى من حلاى ، ووضعتها فى حقيضى ، وسافرت مع برودنس إلى باريس ، وذهبت إلى مرلى هاك فكنيت إليث فيه ذلك الكتاب الذى تعلمه . والله يعلم كم سكبت من الدموع ، وكم وقف قلبى بين كل كلمة وما يبها أثناء كتابته حتى أتمته ، فأعطيته حارس المنزل وأوصيته أن يسلمه إليك عند مجيئك . ثم دهرت للوفاء بعهد الماركيز .

أما حياتى مع ذلك الرجل فلا أستطيع أن أقص عليك منها شيئاً سوى أن أقول لك : إنه لم يرفى المرأة التى كان يتخيلها ، وبمنى نفسه بها ، ولم أرفيه

الرجل الذي يؤنسني ويخلط نفسه بنفسى ، فافترقنا ، فأصبحت لا أعرف لى فى العالم صديقًا صادقًا ، ولا كاذبًا .

« هذه قصتى يا أرمان كما هى ، وهذا ذنبى الذى أدبته إليك . فهل ترى بعد ذلك أنى خائفة أو خادعة ؟ »

« قلبى يخدشنى أئننى سأموت قبل أن أراك ، وأملى يحيل إلى أن ما فى نفسك من الموجدة على لا يستمر إلى ما بعد الموت ، وأنتك مستعود إلى باريس فى الساعة التى يتعانى لك فيها الناعى ، لتزور قبر تلك المرأة المسكبة التى تولت سعادة قلبك وهناءه حقبة من أيام حياتك ، ثم خرجت من الدنيا مارغة اليد من كل شىء حتى من حبك وعطفك ، وربما بلغ بك الاهتمام بشأنا أن تحاول معرفة ما تم لها من بعدك إلى أن ذهب بها الموت إلى قبرها .

« فهأنذا أكتب هذه للذكريات ، وأتركها لك عند بروندس لملك تقرأها فى مستقبل الأيام ، فتتظر إليها كما تنظر إلى كتاب اعتراف مقدس قد ألهمه الموت ثوب الطهارة والبراءة ، فخصدق ما فيها وتعفو عنى ، فبغير عفوك ظلمات قبرى ، ويؤنس وحشة نفسى . »

٣ يناير ١٨٥١

« أين أنت يا أرمان ؟ أنت بعيد عنى جدًا ، بعيد بجسمك وبقلبك ، لأملك لم تهمل كتابى الذى كتبتك فيه لزيارتى وسماع اعترافى الأخير ، إلا لأن ما كان فى نفسك من العتب والموجدة على قد استحال إلى نسيان وإعمال ، فأصبحت لا تذكرنى كما يذكر الحب حبيبته ، ولا تعطف على كما يعطف الصديق على صديقه ، فليكن ما أراد الله ولتدم تلك السعادة التى تنعم بها بين أهللك وقومك ، فإنى غير واجدة عليك ، ولا ناقمة منك شيئًا ، ولا حاملة لك فى نفسى إلا الحب والإخلاص والرضا بكل ما نأتى ، وما

تدع .

« لى عدة أيام لم أرفبها أحدًا من الناس ، لأن الطبيب معنى من الخروج ، ولأن أصدقائى الذين كانوا يعرفونى فيما مضى قد أصبحوا يقعون من زيارتى بإرسال بطاقاتهم إلى مع خادمى ، ثم يصرفون مسرعين كأنما يعرفون من أمر يحيمهم ، ولقد كانوا قبل اليوم إذا أرسلوها لبثوا ينتظرون الساعات الطوال حتى آدن لهم بالمقابلة ، فإذا ظفروا بها طاروا بها فرحًا وسرورًا ، وإن حرموها عادوا آسفين محزونين !

« ولا أدرى لى لا يقطعون بطاقاتهم كما قطعوا رياراتهم ؟ فإن كانوا يظنون أنهم سيروى بينهم فى مستقبل الأيام صحيحة الجسم طيبة النفس ، أصلح للمعاشرة والمحادثة كما كانوا يهينوسى من قبل ، فهم فى ظلم محطون .

« لقد أحسوا فيما عملوا ، فأنى أصبحت لا آنس بأحد فى العالم سوى نفسى ، ولا آنس بنفسى إلا لأنى أستطيع متى حلوت بها أن أسألها عنك فذكرى بك وتلك الأيام السعيدة التى قضيتها معك فى بوجيفال ، وذكرى تلك الأيام هى العزاء الباقى لى عن جميع ما خسرت يدى .

« ما كنت أظن يا أرمان أن جسم الإنسان يحتمل كل هذه الآلام التى أكادها ، فلقد تمر فى ساعات أعتقد فيها أن الألم الذى أكادها بما هو ألم الرع ، وأننى فى الساعة الأخيرة من ساعات حياتى ، فإذا استعفت قلت فى نفسى . هذا ألم المرض ، وقد عحرت عه ، فمن لى باحتمال ألم الموت ؟

« على أن نفسى تخدشنى أحيانًا أنه إن قدر لى أن أراك مجابى فى يوم من الأيام برقت من مرضى ، وتراجعت نفسى وعدت إلى راحتى وسكونى ، فهل يقدر لى الله ذلك ؟

« لا أعلم ، فال مستقبل بيد الله فليقدر الله ما يشاء وليفعل ما يريد . »

٢٤ يناير ١٨٥١

« لم أمارق سريري منذ أيام طوبى إلا صباح هذا اليوم ، فحسنت قليلاً بحجاب نافذتي ، وأشرفت منها على الحياة العمة ، فوقع نظري على كثير من كنت أعرفهم من قبل سائرين في طريقهم لاهين معتبين ، ولم أرى منهم من رفع نظره إلى بواحد غرفتي مرة واحدة كأنهم يمشون بيت لا يعرفونه ، ولا عهد لهم به من قبل .

« ما أشد وحشتي ! وما أضيق صدري ! وما أثقل هذا الجدار الذي يلحور

حولى !

« لا أطيق النظر إلى سريري ، لأن عسى تحدثني أنه سيكون عما قيل سلم قبرى ، ولا الوقوف أمام مرآتي ، لأنها تحدثني عن عسى أسوأ لأحاديث وأشأمها ، ولا لإشراف من نافذتي لأنها تذكرني بحيني الماضي السعيدة التي جيل يسي وينها ، فأين أذهب وكيف أعيش ؟

« لا آكل إلا طعاماً واحداً ، ولا أرى إلا منظرًا متكررًا ، ولا أسمع إلا صوت طيبي وحاديثي حينما يسألها عسى صباح كل يوم ومساءه فتجيبه بجواب واحد ، حتى مللت وسمعت ، وأصبحت أشعر أن نفسي سجينة في صدري ، سجن جسمي في غرفتي ، وربما مرت لي ساعات يقف فيها دهى عن التفكير وبخاطري عن الحركة ، ويقطع ما بيني وبين رومي وأمسي وعدي وكل شيء في الحياة حتى نفسي .

« السعال يهدم أركان صدري هدمًا ، واليوم لا يلثم عيني إلا قليلًا والطبيب يهدني بمشارطه وصيحاته (١) عندئذ أبيت ، وكل يوم أشعر أن

(١) للمشارط : جمع بشرط وهو ما يُشرط به للجلد لاستخراج الدم . والمشارطات : المصائب توضع على المصروع المبروح أو المكسور .

عسى يرداد ضيقًا ، وبصرى يرداد ظلمة ، وأن الحياة تبعث عن ما ظننى شيئاً فشيئاً ، حتى أكاد أحسبها شيئاً من الأشباح النائية فتنبى يقضى عذابي ؟

٣٠ يناير ١٨٥١

« سمعت صباح اليوم لجيًّا كثيرًا في فناء المنزل ، فسألت برودنس : ما الخير ؟ فذهبت وعادت إلّى تبكي ، وتقول : إنهم يحجزون أثاث المنزل يا سيلقى . فقلت : دعهم يفعلوا ما يشاؤون . وما هي إلا لحظات قليلة حتى دخلوا غرفتي مدعنين متصاعجين ، ولم يمر بخاطر واحد منهم أن يرفع قبعة عن رأسه احترامًا لصاحبة المنزل ، أو يخفض صوته إشفاقًا على المريضة المعذبة . فمشوا يسجون كل ما وقع بنظرهم عليه ، وجمعت أن يسجلوا دهر مدكراتي فأشرت إلى برودنس أن تخفيه عنهم ففعلت ، فحمدت الله على ذلك . ثم وصلوا إلى سريري فطلب أحد الدائنين حجزه ، وقال إنه غمين ، سيكون له يوم البيع شأن عظيم ، فأفهمه الخاجر أن القانون يستثنى الأسرة وفراشها ، وألقى في أذنه كلمة أحسب أني سمعته يقول فيها : إنك تستطيع أن تفعل ذلك بعد موتها ! ثم انصرفوا بعدما تركوا على باب بيتي حارسًا لا يمارقه ليله ونهاره .

« فكنت إلى « النوق موهان » . وهي أول مرة كتبت إليه فيها أستغفره ذنبي الذي أذنبه إليه ، وأشكوه له ما نالته هذا الأيام منى وأستحلفه بذكرى ابنته الكريمة عبيد أن يأتي لزيارتي ، فعمل فيكي عذما رآني ، ولا أدري هل يكاني أو ذكر عذروية مصرعى مصرع ابنته الأخير فيكاه ، ثم نصى بحجاب فراشي ساعة مطرقًا صامتًا لا يتحدثني إلا قليلًا ولا يذكر الماضي بكلمة واحدة ، ثم ذهب وترك في يد برودنس صمّة أوراق ، استنقت بعضها للنفقة واستعانت بها قهبا على تأجيل بيع الأثاث بضعة أشهر .

« لا أستطيع أن أكتب إليك اليوم أكثر مما كتبت فإن العليل ما زال يلح على جسمي بالفصد حتى أوهاه واستنزف دمه ، فأصبحت لا أتحرك حركة إلا شعرت بألم عظيم . »

٢ فبراير ١٨٥١

« إن هذا اليوم أسعد أيامي وأهوها ، فقد وصل إلي من أليك كتاب هذا نصه :

« سيدتي :

« إلى أتوجه لك توجعًا شديدًا ، فقد علمت بالأمر من بعض الوافدين إلى « نيس » أنك مريضة مرضًا شديدًا منذ شهرين ، وأنت لا تخرجين من منزلك إلا قليلًا ، فأسأل الله لك الشفاء والعزاء ، وأضرع إليه أن يجزيك خيرًا بما قاسمت من الآلام والأوجاع في سبيل وسبيل ابنتي . وأبشرك أن الله قد تقبل قربانك الذي قدمته إليه ، فإن سوزان قد تزوجت من خطيبها منذ عشرين يومًا وأصبحت هانقة بحبها وعيشها كما أردت لها ، وإن لم تكن تعلم من أمر تلك القصة التي تعلمها شيئًا فقد قلت لها : إن بعض الناس — ولم أسمه لها — قد ضحى بنفسه وبسعادته في سبيل سعادتك وهنائك ، فلا تتركي الدعاء له في جميع صلواتك بجزيل الأجر وحسن المثوبة ، فهي لا تزال تدعو لك صباحها ومساءها أن يحسن الله إليك كما أحسنت إليها .

« أما الكتاب الذي أرسلته إلى أرمان في أوائل الشهر الماضي فلم يصل إليه إلا اليوم ، لأنه منذ فارقك وسافر إلى « نيس » لم يستطع البقاء فيها إلا بضعة أيام ، ثم رحل عنها إلى الشرق حزينا مهجوماً من أجلك ، وكنت لا أعرف الجهة التي يقيم فيها ، فلم أستطع أن أرسله إليه حتى عرفنا منذ أيام قلائل فأرسلته وأرسلت معه كتابًا أطلعه فيه على قصتك ، وأقول له إنني

لا أرى مانعًا يمنعني بعد رواج أحسن من أن آذن له بالسفر إلى باريس والبقاء فيه ما شاء أن يبقى ، وأحسب أنه يصل إليك في عهد قريب .

« أرسلت إليك مع كتابي هذا عشرة آلاف فرنك أرجو أن تقبلها مني ، وأن تنطري إليها بالعين التي تنظرها العناية إلى هدية أبيها الذي يحبها ويحبها ، فإن فعلت أحسنت إلي بذلك إحسانًا عظيمًا .

« لي الأمل أن أسمع عما قليل خبر شفائك ، وأرجو أن أراك في مستقبل الأيام ناعمة بصحتك وسعادتك .

« دو فال »

« فما قرأته حتى شعرت بهزة من السرور في قلبي ، لم أشعر بمثلها منذ فارقتك حتى اليوم ؛ فقد علمت أن سوزان قد تزوجت ، وذلك ما كنت أرجو لها ، وأنت لا تزال نحسي ، وقد أحاف سيالك أكثر مما أحاف عتيك ، وأنسى سأراك عما قليل ، وتلك آمالي في الحياة .

« أما الهدية التي أرسلها إلي أبوك فقد نظرت إليها بالعين التي أرادها ؛ فقبلتها شاكرة له حامدة ، أحسن الله إليه كما أحسن إلي . »

٣ فبراير ١٨٥١

« استطعت أن أنام ليلة أمس أكثر من كل ليلة ؛ لأن السرور الذي تركه كتاب أليك في نفسي شغلني عن كل شيء حتى عن ألمي ، وفي الصباح قال لي طبيبتي إنك اليوم خير منك في كل يوم ، وإن الشمس مشرقة ، والهواء فاتر عليل ، فأخرجني في مركبتك إلى بعض المنتزهات ساعة ، ثم عودى .

« فخرجت إلى غابات « الشانزلويه » فرأيتها زاهرة بالحياة والجمال ، ورأيت الناس فيها ضاحكين متلهلين معتبين بسعادة لا يعرفون قيمتها كما تعرفها امرأة محرومة منها مثلي ، فلم أحسدهم على نعمتهم التي آتاهم الله ، بل

دعوت لهم بقاتها ودوامها ، إلا أنني حزنت على نفسي حزناً شديداً حينما رأيت أن كثيراً من معارف الماضين قد مروا على مقربة مني ، ولم يعرفوني ، ورأيت أحدهم ينظر إليّ ، وقد مر بجانب مركبتي نظراً للتخيل للتوهم ، ثم لم يلبث أن لوى وجهه عني ومضى لسبيله ، وقد استقر في نفسه أنه يرى امرأة غير المرأة التي يعرفها .

« فعلمت أنني قد تغيرت تغيراً عظيماً ، وأن مرآتي ما كانت تكذبني حينما تحدثني عن نحولي واصفراري ، واستحالة صورتي ، بل صدقتني كما صدقتني الناس .

« ثم رأيت الشمس قد توارت وراء حجائبها فعدت إلى منزلي ، وقد زال من نفسي ذلك الحلاط الذي أحزنتني ، وحل محله خاطر آخر خير منه ، وهو أنني سأراك عما قليل .

« وسينقضي بلفائف عهد بؤسى وشقائي . »

٧ فبراير ١٨٥١

« ما أحسب أنك مدركي يا أرمان ، فقد بلغت في العلة متنها وأصبحت لا أجد الراحة في قيام ولا قعود ، ولا نوم ولا يقظة ، وانتشرت الآلام والأوجاع في جميع أعضائي ومفاصلي ، وكأن حجراً من الأحجار العاتية تمتد على صدري بمنعني التنفس والحركة ، وقد عجزت اليوم عن أن أنتقل من سريري إلى مكنتي ، فأمرت برودنس أن تأتيني بمحبرتي ودخري حيث أنا ، فجاءت بهما إليّ ، فأنا الآن أكسب إليك وأنا في فراشي ، فمتى أراك يا أرمان لأحيا برؤيتك أو أودعك قبل أن أموت ؟ »

١٠ فبراير ١٨٥١

« أمل في الحياة ضعيف جداً ، ها هو الموت يدنو مني رويداً رويداً ، لم

تأت إليّ حتى الساعة يا أرمان ، وأظن أنني سأموت قبل أن أراك ، إن الموت محيف جداً يملأ نفسي رعباً وهولاً ، لا أعلم كيف أستطيع أن أسكن وحدي تلك الحفرة الموحشة المظلمة التي لا أبس لى فيها ولا سمير ، لم أفتح بالحياة طويلاً وكانت كل سعادتي فيها آمالاً وأحلاماً ، وهأنذا أموت قبل أن أرى شيئاً من آمالي وأحلامي .

« ما أحل الحياة وأمر عراقيها ، لم أمل منها طائلاً ، ولكني لا أحب أن أتركها ، لقد سعد الدين يُعْمَرُونَ في الحياة طويلاً ، ثم يموتون فيتركون من بعدهم ذرية صالحة أو عملاً طيباً يعيشون به بعد موتهم ربما أطول مما عاشوا . أما أنا فإني سأموت في ربيع حياتي ، وسيموت ذكرى في الساعة التي أموت فيها ، وكأنني لم أعش في الحياة يوماً واحداً ، وأسماء على ما مرطت في حياتي الماضية ، إني أدفع اليوم عن ديوني وآثامي أصعافاً مصاعفة .

« لقد كنت أستطيع أن أفتح بالمضغة والجربة ، ولا أمد عيني إلى ما تقتصر عه يدي فلم أفعل ، فما أبدأ لا أسيع المضغة ولا الجربة ولا أجد السيل إلى العيش على أية صورة كانت .

« أهكذا أخرج من الدنيا عريية عما كما دخلت فيها لا يحضر موتى قريب ، ولا يبكي عليّ صديق ؟ أهكذا تنتهي حياتي في الساعة التي أحسبتها فيها وأصبحت على مرحلة واحدة من أحلامي وآمال ؟

« آه لو يمهلى الموت قليلاً فرمما كنت على مقربة مني ، فأظن إليك نظرة واحدة ثم أموت لا أمل لي في ذلك ؛ فقد رأيت طيبى صباح اليوم يبقى في أدن حادمتي وهو حارج من عدى كلمة ، صانها عنها فدارت حولها ولم تفعلها ، وما أحسبها إلا تلت الكلمة الهائلة . لا أكاد أبصر شيئاً مما حولي حتى يياض الصحيفة التي في يدي . كنت قبل اليوم أبعث الدم وحده ، والآن

أنت أفلاذ رثني مصيرغة بالدم .

و من لي بكأس من السم أشربها جرعة واحدة فأستريح من هذا العذاب الذي يساورني ، ولكن أي فائدة لي من ذلك ، وما هو ذا الموت يحشي إلى بأسرع مما أمشي إليه ؟ رحمتك اللهم واحسانك ، فأنت وحدك العالم بقدر ألي وعلاي ، فارحمني وهون علي أمري ، وامنني إحدى البراحين .

و لا أرى شيئاً ، ولا أعرف ماذا أقول ، وربما كانت هذه الكلمات آخر ما تخطه يدي ١

١٤ فبراير ١٨٥١

و لا تخزن علي كثيراً بعد موتي يا أرمان ، فحسبي منك أن تذكرني ولا تنساني ، وأبشرك أن الله قد استجاب لدعائي ، فألقي في نفسي منذ الآن برد الراحة واليقين ، وعا من قلبي جميع حوائفه ووساوسه ، فسلمت أنه قد رضي عني ، وغفر لي ذنبي ، وأصبحت لا أخشى الموت ولا أتعاف بعلمه ، ولا أبحر من الألم ، ولا ألكي أسفاً على الحياة ، فلا يحزنك أمري حين تعلمه ، وعش سميماً بين قومك ، وأهلك ، وأكرم أباك فهو خير الآباء وأحسب أعتك فهي أظهر الغنيات ، وأوصيك خيراً برونس فهي خاة طيبة القلب ، عظيمة الإخلاص لي ولك ، وأخاف أن يتكر ما الدر من بعدى .
و إن الله قد خلق لكل روح من الأرواح روحاً أخرى تماثلها وتقابلها ، وتسمد بقلوبها وتنقي بقرانها . ولكنه قدر أن تفصل كل روح عن أختها في الحياة الأولى . فذلك شقاء الدنيا ، وأن عتدي إليها في الحياة الثانية . وذلك سعادة الآخرة .

و فإن فاتتني سعادتي بك في الأرض ، فساأنتظرها في علباء السماء ١٥
وما كتبت بعض كلمات مضطربة ، قد عا الدمع أكثرها فلم يبق منها واضحاً بعض الوصوح إلا كلمة والوداع ١٤

*** **

بقية المذكرات

بقلم المحاضرة برونس

١٤ فبراير ١٨٥١

و لم تستطع مرغريت يا سيدى ، أن تكتب لك أكثر مما كتبت ، لأن الطبيب منعها الحركة ، ولو أرادها لمجرت عنها .

و أتذكر يا سيدى ذلك الجسم النض الناعم ، الذى كان يهوج بالنور موجاً ويشرف وراء بشرته بأشراق الغمر في كأسها ؟ لقد أصبح اليوم عظيماً جللاً وميكلاً قائماً لا يساوى ثمن النظر إليه ١

و أرحمته لك ١ لقد مات كل شيء فيها إلا قلبها وشعرها ، وليتبعها ما فيها ١ فإنه لا يعذبها شيء مثل غيرها وأفكارها ١

و لا يدخل من باب غرضها داخل ، حتى ترفع نظرها إليه تنظر أنك قد جتتها ، فإذا دنا منها ورأته أطلقت جفتها على دمة تنحدر من بيتها بالرغم منها .

و إنها لا تتكلم كثيراً فإذا تكلمت كان أول حديثها : ألم يأت أرمان ؟ فإذا أجبها أن لا ، سألت من أمر آخر تلهي به ، أو عادت إلى صحتها مرة أخرى .

و لقد رأينا اليوم أن طبيها لم يأتها ، فلما أدت أن أعتذر لها صه لم تصدقنى ، و قالت : الآن عرفت كلمته التى ألغاهها إليك بالأمس . فسكت ، ولم أعرف ماذا أقول .

١٤ فبراير ١٨٥١

« أصبح اليوم صوته ضعيفًا جدًا لا أكاد أسمعه ، وأظلم بصرها فهي تنظر إلي ولا ترائي ، وقد أشارت إلي في الصباح مرارًا أن أفتح لها نوافذ الغرفة لتستشق الهواء وتروح عن نفسها ، ونوافذ الغرفة مفتوحة يجرى منها الهواء متدفقًا ، ولكنه لا يصل إلى صدرها .

« آه لو أستطيع يا سيدي أن أبيع حياقي لأشتري لها بضعة أنفاس تتردد في صدرها ، أو بعض سنوات من النوم تأوي إلى جفنها ، فإن تنفسها يؤلمني ويعذبني عذابًا شديدًا ، وقد مرت بها ثلاث ليال لم تنم فيها لحظة واحدة !

١٥ فبراير

« بعد صمت طويل لم تنطق فيه بحرف واحد فحنت عينيها ، ونادتن بصوتها الخافت الضعيف فدنوت منها ، فقالت لي : أريد الكاهن فأتيني به . فعلمت أنها قد أصبحت على يقين من أمرها ؛ فغالبت عبراتي حتى خرجت من الغرفة ، فبكيت ما شاء الله أن أفعل ، ثم ذهبت إلى الكاهن فردد عندما ذكرت له اسم المرأة التي يريد الذهاب إليها ، فضرعت إليه وقلت له : إن رحمة الله يا سيدي لا يستحقها أحد مثل الآثمين المفسرين . فأذعن بعد لأي وجاء معي فخلا بها ساعة ثم خرج ، فسألته :

أبرحمها الله يا سيدي ؟ قال : إنها عاشت عيش الآثمين ، ولكنها ستموت موت المؤمنين . فحمدت الله على ذلك .

« ومنذ تلك الساعة لم أعد أسمع منها كلمة واحدة ، ولا أرى حضورًا من أعضائها يتحرك ، إلا ما كان في صدرها يترجح بين الصعود والهبوط .

١٥ فبراير — ساعة الغروب

« إن مرغريت تتعذب كثيرًا يا سيدي ، وأحسب أنها تعالج سكرات

الموت .

« لم يقاس إنسان في حياته مثل ما تقاسيه الآن من آلامها وأوجاعها . إنها تصرخ من حين إلى حين صرخات تلوب لها جيات القلوب .

« ولقد اشتد بها الألم الساعة فهبت من مكانها صارخة ، وانتصبت على قدميها في سريرها حتى كادت تسقط عنه ، فأدركتها وأضجعتها في مكانها ، ففتحت عينيها فسقطت منها دمعان كبيرتان ، وكأنما أحست في فاعتقتني وضمتني إليها ضمًا شديدًا ، ثم ما لبثت أن تراخت بها وعادت إلى نزعها وجهادها .

١٥ فبراير — نصف الليل

« قضى الأمر وماتت مرغريت ، ولم يبق منها على سريرها إلا جنبها التي ستهب غداً إلى قبرها ، تلك غابتها وغاية كل حي ؛ فصبراً على قضاء الله وبلائه !

« لقد هتفت باسمك كثيرًا يا سيدي في ساعتها الأخيرة ، وكان آخر عهدنا بالحياة أن نظرت إلي نظرة طويلة مملووعة حزناً ودموعاً ؛ ثم حركت أصبعها حركة خفيفة ، وأشارت إلى دفتر مذكراتها الذي كان ملقى بجانبها وقالت : « أرمان » ففهمت أنها توصيني أن أبلغه إليك ، ثم أسلست روحها .

« عزيز علي يا سيدي ما لقيت من العذاب قبل موتك ، وعزيز علي أن تموت ، ولا تجدي بجانبك من يضمض عينيك ويلقي رداءك عليك . وياي ! وفي سبيل الله تلك النفس الطاهرة الكريمة التي ما حملت في حياتها شرًا حسن ولا لمسئ ، وذلك الصدر الرحب الذي كان يسع الدنيا بأرضها ودمها . ولا يضيق عنها ، وذلك القلب النقي الأبيض الذي ما أضمر في حياته شرًا .

أو الإحسان ، ولا فاض إلا بالرحمة والحنان .

بكت برودنس بجانب حثة سيدتها ما بكت ، ثم أنارت حولها الشموع ، وبحث إلى الكاهن فجاء وجثا عند رأسها يقرأ في كتابه ، ومشت هي إلى المكتب فجلست إليه تكتب آخر مذكراتها حتى فرغت منها .

ثم قامت من مكانها فراعها أن رأت شيئاً مائلاً على باب الغرفة ، فمشت إليه فإذا هو أرمان في لباس السفر ، وقد ألقى من مكانه على سرير الميتة نظرة غريبة هائلة كذلك النظرة التي تسبق صرعات الجنون ، ثم استردها وألقاها عليها ، وسألها :

« من هذا المسجى على هذا السرير ؟ » فبكت برودنس ولم تقل شيئاً ، فسقطت حقيبتها من يده ، وجهد في مكانه لحظة لا ينطق ولا يتحرك .

ثم اندفع إلى سرير الميتة صارخاً يريد أن يلقي بنفسه عليه ، فأدركته برودنس ووقف الكاهن في وجهه ، وقال له :

« احترم الموت أيها الفتى . » فاختنقت عبراته في صدره وارتعد ارتعاداً شديداً وسقط منشياً عليه .

فلم يستبق إلا مطلع الفجر حينما شعر أنهم قد أقبلوا يحملون الجثة ، فقام يتحامل على نفسه حتى دنا من السرير ، وقال :

« رحمة لي أيها الناس ، فقد فاتني أن أودعها ، وهي حية ، فأذنوا لي أن أودعها ميتة . »

فرحموه وأفرجوا له عنها حتى داناها ، ورفع الغطاء عن وجهها وقبلها في جبينها ، وقال :

« الوداع يا أعز الناس عندي ! الوداع يا خير فناة في الأرض وأشرف روح في السماء ! » ثم أعاد الغطاء على وجهها ، وتراجع عنها وأذنهم بحملها .

ثم مشى وراء نعشها يبكي ويتعجب ، ولم يمش وراء النعش غيره وغير الخادمة برودنس ، والدوق موهان ، وهو يتوكأ على عصاه ، ويقول في نديه وبكائه :

« هاأنذا أرى ابنتي تموت أمامي مرة أخرى ، ولا أزال حتى الساعة على قيد الحياة ، وبعض نسوة بالسات من ضحايا تلك المقادير . »

وما انقضى النهار حتى انقضى كل شيء ، وأصبحت مرغريت رهينة قبرها ، وأرمان طريح فراشه يقرأ في مذكراتها ويبكي بكاء الناكل المفجوع . ثم اشتد به المرض بعد ذلك ، فلم تر برودنس بدءاً من أن تكتب إلى أبيه تشرح له سوء حاله ، فحضر وحضرت معه ابنته وزوجها ، ولبثوا بجانبه شهراً يمللونه ويشتفون له ، حتى أبلى وغيا من خطره .

ثم ذهبوا جميعاً إلى قبر مرغريت ليودعها قبل سفرهم ، فيكوا حوله بكاء شديداً ، وكانت سوزان أشدهم بكاء عليها ، وإن كانت لا تعلم أنها تبكي المرأة التي ضحت بنفسها في سبيلها .

ثم تقدم المسيو دوقال إلى ولده ، وقال له :

« أتغفر لي ذنبي يا بني ؟ »

قال : « نعم يا أبتاه لأنها غفرت لك ذنبك إليها . » ثم انصرفوا .

مرت الأيام وانقضت الأعوام ، ومات المسيو دوقال ، وسعد ولده كما أراد له أبوه ، ولكن بقيت بين جنيبه لوعة معتلجة ، لا يروحها عنه كلما ساورته إلا قراءة مذكرات مرغريت ومحادثة برودنس عنها وزيارة قبرها من حين إلى حين .

الفهرس

صفحة

٦	النجم
٢١	الشهداء
٤٠	الحجاب
٥٦	الذكرى
٧٢	الطيرة
٨٥	الجزاء
١٠٠	العقاب
١١٩	الضحية
١٥٢	مذكرات مرغريت
١٧٧	بقية المذكرات

مؤلفات أمير الشعراء أحمد شوقي

- ديوان الشوقيات (١) في السياسة والتاريخ والاجتماع
ديوان الشوقيات (٢) في المحرمات
ديوان الشوقيات (٣) في الحكايات
ديوان الشوقيات (٤) في ديوان الأطفال

مسرحيات

- ١ - مجنون ليل
٢ - مصرع كليوباترة
٣ - عنصرة
٤ - قيسر
٥ - عل بك الكهر
٦ - الست هدى
٧ - أميرة الأندلس

مؤلفات مصطفى لطفى المنفلوطى

- ١ - الفضيلة - بول وفرجينى
٢ - الشاعر - سوانو دى برجرانك
٣ - فى سيل التاج
٤ - النظرات (ثلاثة أجزاء)
٥ - المصبرات
٦ - ماجدولين